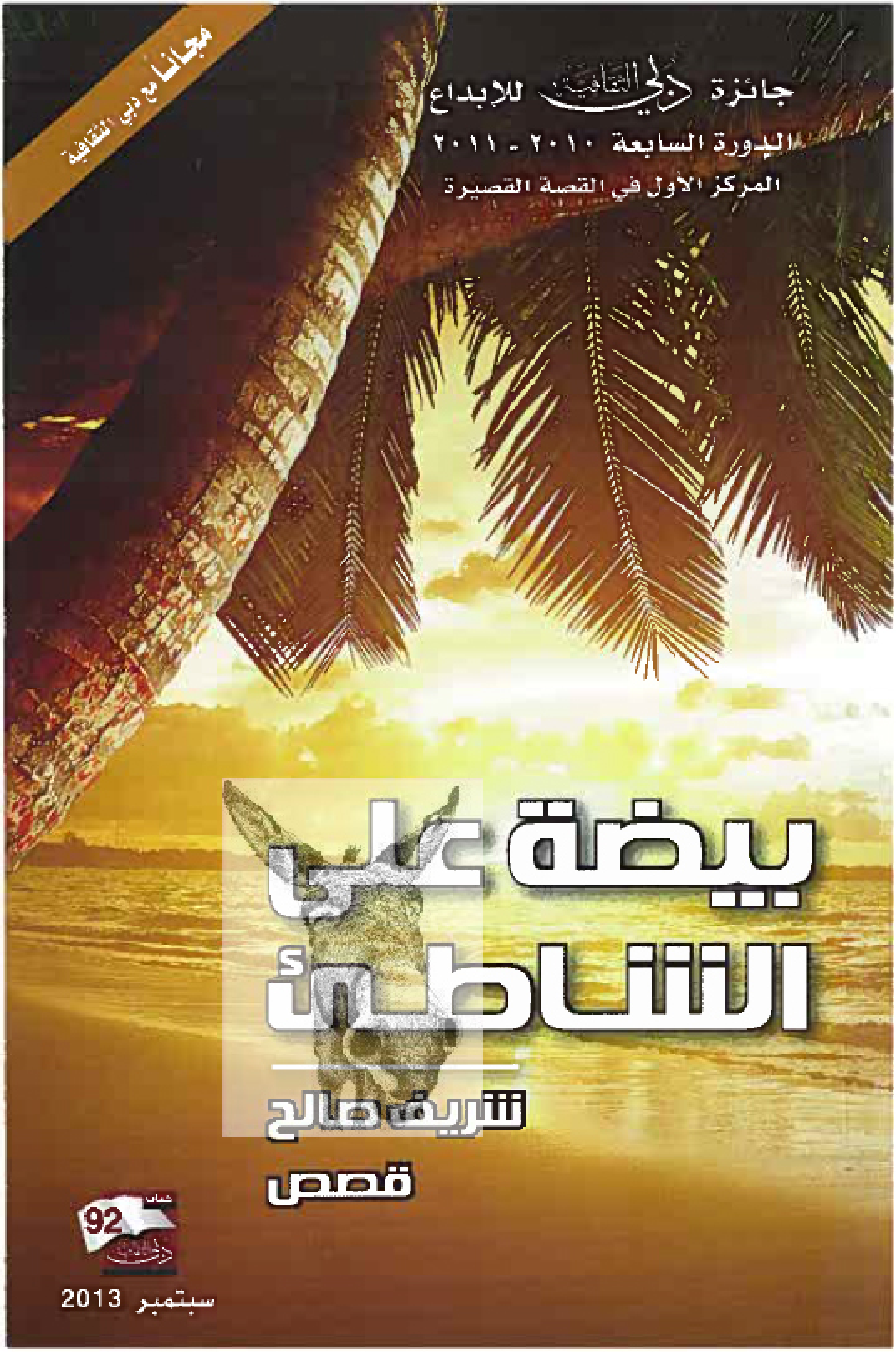
مجاناً مع دبي الثقافية
جائزة دبي الثقافية للإبداع
الدورة السابعة ٢٠١٠ - ٢٠١١
المركز الأول في القصة القصيرة
بيضة على الشاطئ
شريف صالح
قصص
سبتمبر 2013

كتاب دبي الثقافية

يصدر عن مجلة دبي الثقافية
ويوزع مجاناً مع المجلة
الإصدار 92

شريف صالح

بيضة على الشاطئ

قصص

■ الطبعة الأولى، سبتمبر ٢٠١٣

■ حقوق الطبع محفوظة لدار الصدى

كتاب دبي الثقافية

المدير العام رئيس التحرير
سيف محمد المري

مدير التحرير
نواف يونس

متابعة
يحيى البطاط
محمد غبريس

المدير الفني
أيمن رمسيس

الإخراج والتنفيذ
محمد سمير

مدير العلاقات العامة
محمد بن مسعود

مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار
الصدى
للصحافة والنشر والتوزيع

عناوين المجلة
www.alsada.ae

■ التحرير والادارة دبي:
الإمارات العربية المتحدة دبي
منطقة الصفا شارع الشيخ زايد
هاتف: ٣٤٢٢٢٢٤/+٩٧١٤
فاكس: ٣٤٢٢٦٦٦ ٣٤٢٢٩٢٩/+٩٧١٤
أبوظبي هاتف: ٦٢٦٨٨٩٢/+٩٧١٢
فاكس: ٦٢٦٨٨٨٣/+٩٧١٢

■ الإعلانات والتسويق:
دبي شارع الشيخ زايد
برج المدينة (٢) شقة ٤٠٢ ص.ب: ٢٩٠٦٦
هاتف: ٣٣١٤٣١٤/+٩٧١٤
فاكس: ٣٣٢٢٢٩٢/+٩٧١٤

■ التوزيع والاشتراكات:
هاتف: ٣٤٩٠١٠٠/+٩٧١٤
فاكس: ٣٤٩٠٦٠٠/+٩٧١٤

هذا الإصدار

بقلم: سيف المري

يسعد دار «الصدى»، ومجلة «دبي الثقافية»، ويسعدني شخصياً، أن نقدم للقارئ العربي المتابع للمجلة وأنشطتها، هذا الإصدار الخاص بالفائزين في الدورة السابعة من مسابقة دبي الثقافية للإبداع التي أكملت مدةً زمنيةً كافيةً بين أيدي القراء الكرام؛ ليتعرفوا إليها ويطلبوها، وتتزايد إسهاماتهم في دعمها عاماً بعد آخر.

وأعتقد بأن ما قدمته دبي الثقافية خلال أعوامها التي تصرَّمت، ليثبت للقارئ الحصيف مدى جدّيتها في رفد العمل العربي الثقافي بالجديد والمفيد دائماً، وأن تكون صفحاتها لسان حال كل المثقفين العرب، على اختلاف مشاربهم وانتماءاتهم؛ لأن غايتنا خلق واقع ثقافي عربي جديد، ونكرّس

لهذا الهدف النبيل جميع طاقاتنا وإمكاناتنا، ولا ننتظر من المتلقي سوى الاهتمام والمشاركة والتفاعل. ومع إيماننا الراسخ بأن جيل الشباب العربي الواعد، لديه الطاقات الخلاقة التي سوف تساهم إلى حد بعيد، إذا وجد الفرصة، في إثراء وتطوير ذلك الواقع..

ونحن من خلال المسابقات السنوية التي نطرحها في مجال الشعر والقصة والرواية والدراسات الجادة والفنون المختلفة، لعلى يقين بقدرة هذا الجيل على التغيير نحو الأفضل، ومشروعنا الثقافي مكرّس لفئة الشباب باعتبارها الفئة القادرة على إنجاحه، وقد آلينا على أنفسنا أن نقدم كل إمكاناتنا ونضعها في خدمة هذا المشروع.

وإنني، ممثلاً لجميع الزملاء في دبي الثقافية؛ إذ أقدم هذا الإصدار لك، أيها القارئ الكريم، ليحدوني الأمل في أننا قد أنجزنا جزءاً من مشروعنا الثقافي بإصدار الأعمال التي تستحق أن يهتم بها المثقف العربي، ولا يوجد لدينا أيّ تمييز بين أبناء الأمة العربية من محيطها إلى خليجها سوى الإبداع والتجديد. ونرجو أن تسعدَ مثلنا بهذا الإصدار الرائع بين يديك الكريمتين، وغايتنا التي نسعى إليها هي خدمة القارئ العربي.

الغواية الأولى

إلى سيد الوكيل وسمير الفيل

طفلي المنتظر، مازال نائماً في عالم الغيب وأنا أترقبه هنا في عالم الشهادة كي أعطيه اسمي وملامحي وطباعي.

لكن طفلي..

طفلي قطعة اللحم الصغيرة التي تشبه سمكة جمبري ملتفة حول نفسها.. طفلي هز رأسه الكبير وضرب برجليه بطن أمه متمرداً عليها، وعلى أحلامي فيه.

قال الطبيب إن جدار المشيمة انفصل حوالي ٤٥ مللي.

كانت زوجتي شعرت بآلام لا تحتمل في البطن والظهر. خلال دقائق كنا في مستشفى الرحمة الاستثماري في شارع مكة. وضعتُ يدي على بطنها شبه المنتفخ وقرأت آية الكرسي. أريد بأية وسيلة إيقاف هذا التمرد غير المتوقع، أُطمئن صغيري ألا يخاف وألا يهدم بيته الجنيني على رأسه.

تحرك الطبيب بسرعة وقد زم حاجبيه الكثيفين. كان غليونه مطفأ في زاوية فمه لكن رائحة التبغ تنبعث منه. تتحرك خلف

خطواته ممرضة هندية ابتسامتها منكسرة، كلما دارت حوله فاحت منها رائحة فلفل حار.

علقت الممرضة محلول الجلوكوز فوق القائم الفضي بعدما أذابت بداخله حقنة لتثبيت المشيمة قبل الانهيار الكبير.

زوجتي صرخت عند إدخال إبرة المحلول في الوريد، عصرت يدها «العرقانة» في يدي فطفرت دمعة في عينيها. تعلقت عيناي بالسائل وهو ينز من الأنبوب الشفاف قطرة قطرة، كأنني أعد اللحظات والقطرات.

الطبيب أراني على الشاشة تهويمات رمادية وفي وسطها مخطط بسيط لصغيري وهو يهز رأسه بطريقة ساخرة. أسمعني نبضات قلبه: «بُم بُم بُم» مضاعفة ربما آلاف المرات، بينما يتحرك النبض في خط متعرج فسفوري حتى آخر الشاشة ثم يتلاشى كموجة صغيرة لا تكاد تُرى.

انتظرناه طويلاً.

انتظرناه وأعددنا له المهد والألعاب وعرائس القماش، الحفاضات، شموع «السبوع» التي سيحملها أطفال الجيران، الغربال المطرز بالدانتيلا. جدته أم السعد أهدتنا قبل سفرنا بأسبوع كيساً مملوءاً بالحبوب السبعة، حبوب الخير والبركة!

عندما علمنا بالحمل للمرة الأولى، لم ننم. ظللت أنا وزوجتي

ليلتها نتخيل أنفسنا أبوين، نشحذ الذاكرة بكل الأسماء الجميلة في تاريخ العائلة. في حال جاء ذكراً وفي حال كان أنثى. أعطيتها حق قرار التسمية إذا جاءت بنتاً فاقترحتْ «مريم» على اسم أمها، ومنحتني الحق نفسه إذا كان ولداً فقلت: «محمد» على اسم المرحوم أبي.

تمنيتُ أن أشم رائحته وهو لحم طري تتحسسه يدي فور أن يهبط إلى الحياة. لكنه أمس شد بأظفاره، التي لم تتكّون بعد، أحبال المشيمة وشعيراتها . طفلي قرر أن يهرب مرة واحدة وإلى الأبد، بلا ملامح وبلا بطاقة هوية. لا يريد الاستمرار والبقاء هنا.. ولا هناك.. ولا في أي مكان آخر. سيقفز فوق حافة الموت غير مبال بحياة لم يعشها بعد. لعله لا يريد أن يقتفي آثار أخطائي، ولا دخول كوابيسي ليلاً. ليس مضطراً لمحاربة أعدائي، ولا الترحيب بأصدقائي نيابة عني، في حال لم أعد موجوداً.

حذرنا الطبيب من أي إجهاد قد يزيد خطر الانفصال إلى ١٠٠ مللي، ساعتها قد تتهاوى المشيمة مثل بركان دموي، أشلاء لحم ودم يغرق فيها طفلي. سيتوقف قلبه عن إطلاق: «بُم بُم بُم» على شاشة الكمبيوتر. الطبيب أكد أن هذا يحدث كثيراً بسبب ارتفاع ضغط الدم أو نقص حمض الفوليك، لكنه

طمأنني فحتى الآن الأمور تحت السيطرة، وحمض الفوليك اللعين لم يهزم طفلي.

أجلس بجوار زوجتي صامتاً متوقعاً أن هذا المخلوق الذي لا يُرى إلا عبر شاشة رمادية سوف يسقط في أية لحظة ويفسد علينا متعة تسميته. ليس من حقه طقوس دفن طالما أن وجوده كله لم يتجاوز تسعين يوماً، كل ما فعله طوال هذه الأيام المعدودة أنه وخز بطن أمه ونزع شعيرات المشيمة من جدار الرحم. هل ظن أن تلك الوخزات الخفيفة جريمة لا تُغتفر، وأننا سنعاقبه عليها فور أن يهبط؟ لعله ارتعب من الفضول وترقب العيون حوله، هل أرعبته جدران المستشفى الكئيبة.. روائح الأدوية.. ظلي الذي يدور محموماً حول بطن أمه؟!

ذهبت إلى الصيدلية المجاورة للباب الرئيسي للمستشفى لشراء «الدفاستون» المنقذ. الصيدلانية السورية أو الفلسطينية لستُ متأكداً لاحظتْ أنني أنظر إلى بطنها المرتفع جداً قياساً لقصر قامتها. حسدتها في سري لأنها بيضاء كالقشدة. شرحتْ لي بأن السمراوات أكثر عرضة للإصابة بانفصال المشيمة.

«امرأتي ليست سمراء تماماً» هكذا قلت.

حذرتني من الممارسة، فقلت لها متعجلاً الانصراف: «مفهوم».. ولا بد من الراحة التامة في الفراش. انصرفت وبقية

نصائحها بالكاد تلامس ظهري الذي ينزلق عليه خط عرق بارد.

في بهو المستشفى لوحة كبيرة جداً لمنظر ريفي يتوسطه نهر يجري إلى ما لا نهاية إلى خارج إطار الصورة، وفوقه طيور بيضاء تحلق وتنخفض في حركة أبدية لا تزيد ولا تنقص. إلى الأعلى من جهة اليسار متاهة حلزونية رخوة تنقبض وتنبسط حول بقعة بيضاء. مثل تلك اللوحات الصينية التي توهمنا بالحياة والحركة ليست سوى صور كهربائية رخيصة تم تصميمها بحيلة بسيطة!

كيف لم أر هذه اللوحة طوال اليومين الماضيين؟!

في الممرات البيضاء، المضاءة بضوء أبيض ساطع، تظهر ممرضات حوامل يتهادين ببطء. كن يتصرفن بغرابة ويربتن على بطونهن لإغاظتي. زوجتي لا تستطيع أن تسير مثلهن! ليس أمامها سوى أن تستلقي على ظهرها لساعات شبه نائمة. تبكي، تتألم.. لا يهم، طالما أن حبة فؤادي يحاول التمسك بالحياة مرة أخرى قبل أن ينزلق من بين أيدينا إلى العدم ولا يعود أبداً.

«الدفاستون يا حبيبتي»!

ألمس في حنان يدها، أتعجب في سري: متى وكيف تعطرت

برائحة الياسمين؟! جميلة في كل حالاتها ورائقة، لا تستغني عن فرشاة الأسنان والعطر والمرآة ومشط وردي يناسب حقيبة اليد. أشياء زوجتي منمنمة مثل ملامحها. كانت تبكي طويلاً لأن الألم يفسد عليها زينتها أمام الغرباء.

أواسيها فتمتم بشفتيها الذابلتين. أستلقي بملابسي متعباً على سرير المرافق إلى جوارها.. أبقى منتبهاً لأقل حركة وإن كنت أغفو من التعب أكثر من كوني نائماً. أتمتم بآية الكرسي وأدعية مرتبكة تأتي عفو الخاطر. انتبهتُ إلى الممرضة الهندية وهي تقف بين سريري وسرير زوجتي. ترفع إبرة الحقنة بتلقائية. ظننتها ستعطيها لزوجتي لكنها انحنت قرب وجهي وقالت: ستساعدك على النوم.

«لا أحتاج إليها، أكره الحقن»

لستُ متأكداً إن كنت قلت لها ذلك أم لا، لكنها كانت صارمة لا تبالي بما أقول وهي تشمر عن ذراعي:

«هل نسيت فعلتك؟ أمس فقط ركلت «إيزيا» المسكينة عندما قابلتك في حديقة الطواويس البيضاء وهي حامل»!

أية حديقة؟ أية طواويس؟! لا أعرف من هي «إيزيا» المسكينة ولا عما تتحدث هذه الممرضة المجنونة ولا متى غادرت غرفة زوجتي! كل ما أعرفه أنني رأيت نفسي أسير ليلاً محنياً

في دروب قريتي البعيدة، هناك تنفست الحياة.. القرية كلها كانت تغط في سبات عميق. قطرات الندى تلمع فوق البيوت وأكوام القش وشجر الصفصاف. ملكوت من الصمت والضباب الأبيض. في تلك الشوارع المبللة بالندى، وبمحاذاة هذا النهر الذي اختفى تحت طبقة ضباب كثيفة رأيتني ألعب، أجري، أصرخ على أصحابي بأسماء أمهاتهم.

بياض وصمت ولسعة برد.

كنت أحمل في يدي كيساً أسود به أشياء غريبة. ماذا بداخله؟ حتماً طفلي يستلقي منكمشاً يتأرجح وسط ماء قليل في قاع الكيس كأنه سمكة جمبري خجول. كان هشاً رجراجاً، أشعر بحركته في الكيس المعلق في يدي اليسرى. أحمل مأساتي في يدي وأمضي وسط الضباب. ثم تكشفَ أمامي قطيع كبير لغزلان بيض، قادمة نحوي.. كانت تسير ببطء في خطوات جنائزية، بطونها المنتفخة تحتك ببعضها بعضاً. راودتني رعشة أو رغبة في ملامسة دفء بطونها اللاهثة.

لماذا تسير الغزلان الحوامل وحدها مع النهر؟!

كل غزالة تحمل حلمها في أحشائها وتسير حسب القدر المرسوم. أمرُ مخترقاً قطيع الغزلان السائر على إيقاع الأبدية، باتجاه البر الغربي. هناك خلف الجبل المائل إلى الحُمرة،

يخايلني وجه الله بين السحاب. كأنه يبارك سرب الغزلان. لن أخبر أحداً حتى لا يتهمني بالجنون.

لستُ بحاجة إلى فتح مقابر العائلة سأدفنه هناك في الساحة الترابية بين الجبل والمقابر. هذه الساحة كانت تتحول في الشتاء إلى مستنقع لأعواد البوص والغاب والبعوض. سأغمره بالتراب الندي، قبل أن يراني أحد. يكفي أن يرتاح هنا تحت طبقة سميكة من التراب بالقرب من أموات كبار عاشوا فعلاً. هو لم يمتلك لساناً بعد كي يتحدث معهم. ليس له أذن كي يسمع حكاياتهم النادمة على الوجود وعدم الوجود.

بعض السوائل الغامضة تنز من أسفل الكيس وتبلل قدمي، أي أب مستهتر أنا.. أحمل أشياء غريبة في كيس واحد مع طفلي؟! هل معقول أن يولد ابني من كيس هش به ماء ورائحة سمك وخشخشة ميدالية وقصاصة ورق؟ ليس من اللائق أن أخفي نضارة وجه ابني تحت كل هذه الشوائب ولا تحت الزخارف والزينة المبالغ فيها!

أقف على شاطئ النهر وحدي. أقذف كيسي الأسود بكل ما حواه في الماء المظلم العميق. أقذف بعنف الكائن الذي لم يكتمل. أستعيد لحظة فرح طفولية قديمة. عندما كنا نقف مع رفاق الطفولة فوق الكوبري الحديد ونقذف بأشيائنا الصغيرة

في مجرى النهر. نتأملها بفرح وهي تطفو قليلاً ثم تغرق! ربما نحاول أن نستبقيها لمرة أخيرة في الذاكرة، كي نستعيد صورتها كلما رغبنا. كنتُ أجري على الشاطئ فرحاً بالماء، النسمة المنعشة، خضرة الحقول الشاسعة، أليس كل ما يعز علينا ، شئنا أم أبينا ، نلقيه في نهر النسيان؟! لكن.. شعوري الفرح النزق يتبدل إلى أسى وصمت. ليس سهلاً الشعور بأن الشيء الذي كان معي قبل دقيقة واحدة، حتى لو كان تافهاً، قد ضاع إلى الأبد. هل سأستعيده مرة أخرى أم لا! مثل ومضة تلمع في داخلنا للحظة ثم نعجز عن استعادتها إلى الأبد.

ابني سيطفو بعد قليل فهو سمكة جمبري حمراء وعنيدة. ستعثر عليه الشرطة عند مصب النهر عالقاً بأحد السدود الحديدية الصدئة، وسط غابة من الأكياس الفارغة وعلب العصائر وأعواد القش وأحذية قديمة تخص أشخاصاً لا يعرفهم. سيلقون القبض عليّ لإزهاق روح لا اسم لها. قد يحررون بلاغاً ضدي لأنني لم أدفن جسده الذي لا يتجاوز ١٢ سم في مقابر أجداده.

الضباب ينزاح قليلاً إلى أعلى أشجار الصفصاف، قطيع الغزلان الحوامل اختفى. كان نوار البرسيم الأبيض يغمر مساحات الحقول الشاسعة. أخيراً عثرت على نخلة مشقوقة

نصفين، كانت منصوبة بالعرض فوق النهر. تبدو مهترئة لكثرة ما مر عليها من أقدام. بها ثقوب صغيرة كأنها عيون تراقب جريان النهر أسفلها. هنا في البر الغربي مقابر العائلة موزعة على ثماني عيون، نصفها مغلق ونصفها الآخر مفتوح ينتظر الموتى الجدد. الكيس مازال ينز في يدي، زوجتي خلفي فتحت نافذة بيتنا المطلة على النهر، كأنها شبح غاضب أضاء الضباب، بصراخها الوحشي، ونداءاتها المتوسلة كي أعيد إليها قطعة اللحم الصغيرة:

«هات ابني»

«هات ابني»

«ابني».

لا أدري من أيقظها! ولا كيف كنت أسمعها رغم المسافة البعيدة. امرأة مجنونة! تركتها وقطرات المحلول تنز بهدوء وتساقط في وريدها وكانت شبه نائمة متوجعة من آلام الظهر والبطن، حتماً أصابها مس من الحمى. أتخيلها ورائي منكوشة الشعر في تلك اللحظة. لا تفهم ما يجري!

كيف سنحتفظ بطفلنا وأين؟ هل يحق لنا أن نأخذه معنا عندما نموت؟ هل ستسمح لنا شرطة المقابر بوضع جثث أطفالنا في ثلاجة المطبخ خوفاً عليهم من الموت؟ ألا تفهم

هذه المرأة السمراء النحيلة أن المشيمة انهارت. نعم، المشيمة انهارت كلياً ولم يعد لها وجود.. كيف سيتغذي طفلي؟! هل سترضعه تلك المجنونة قشدة سورية أم نوار البرسيم؟!

لا تريد أن تفهم! الكيان الصغير الذي انتظرناه طويلاً انفصل.. انفصل.. أجل انفصل. أخفق «الدفاستون» اللعين في إنقاذه. مهما فعلنا لن يحبو في بيتنا القديم في القرية، لن يرتدي الحفاضات التي اشتريناها، لن أستمتع بزجره حين يجذب الأشياء المرتفعة نحو رأسه الطري. شرطي الجبانة سيقف باستعلاء وهو يدخن غليونه: لن نسمح لك بأن تمنحه اسماً وتسجله في سجلات النفوس التي عاشت وماتت، حتى لو عاش تسعين يوماً فقط، لن نسمح لك!

طفلي!

طفلي سمكة الجمبري فهم اللعبة وأراد الخروج.. سيخرج من اللعبة قبل أن تبدأ. أراد الخروج لكن قلبه لم يدرك اللحظة المناسبة! رغبة الخروج إلى اتجاه مجهول! زوجتي بجواري تصرخ منكوشة الشعر وتشد يدي بعنف.

«طفلي»!

«طفلي»!

اتصلنا بالدكتور:

«الحقنا.. بقع دم، بقع كبيرة وغامقة».

سرد لنا أدوية أخرى كثيرة لمنع النزيف وتثبيت المشيمة وتقوية أعصاب الأم المنهارة. أخذ أجره كاملاً قبل أن يطمئننا:

«استمروا.. حافظوا.. نامي على ظهرك يا سيدتي لو سمحت.. استرخي.. لا تتحركي.. الخطر سيزول بعد أسبوع.. افعلي كل شيء ممكن حتى لا يزداد الانفصال اتساعاً».

أوامر وتعليمات.. أوامر وتعليمات.. مثل تلك المتاهة الرخوة في اللوحة الصينية التي تنقبض وتنبسط إلى ما لانهاية! ابني أخذ قراراً بألا يهبط إلينا.. لن يبكي ويبتسم في وجه أبيه وأمه المتعبين.. المنتظرين بلهفة وشوق. فقط يعذبنا قبل أن يقرر عدم المجيء، أو بالأحرى الخروج إلى مكان آخر لا نعرفه. حتى لو نجحنا فعلاً في أن نعيد الالتئام إلى المشيمة واستردت شعيراتها والتصقت مرة أخرى بجدار الرحم، وعاد صغيري يسبح في ماء وجوده الأول آمنا مطمئناً، ثم وقبل نزوله مباشرة غدر بنا وشد بأظفاره بكل عنف وقسوة خيوط المشيمة؟ حتماً سينقطع نَفَسه ويحرم من الأوكسجين وقد يولد ميتاً!

معقول! نجري هنا وهناك في أروقة المستشفى، بين معامل التحاليل، سونار وأدوية وانتظار ولهفة وقلق، وفي

الآخر نستقبل هدية السماء جثة ثم علينا أن نصبر ونحتسب. ماذا لو نزفت الأم دماً متخثراً ثم سال وفاض دمها كله ملوثاً الشراشف البيضاء؟ سيقتلها معه، وأبقى وحيداً. أخسر شريكاً بدلاً من أن أستقبل شريكاً آخر. هل سيتسع ساعتها كيسي الأسود لزوجتي وسمكة الجمبري معاً؟

«ألحقنا يا دكتور.. دم .. دم وألم شديد».

جاء مهرولاً وقد زم حاجبيه الكثيفين أكثر. دخل علينا غرفة الطوارئ العابقة بروائح عرق مخلوطة بمطهرات نفاذة. قفزت وراءه إلى داخل الغرفة ممرضة فلبينية بيضاء وبدينة.

«اطمئن». أسمعني الصوت مضاعفاً على الشاشة:

«بم بُم بُم»

إذاً هو بخير.. مازال حياً يُرزق.. يقولون إن الانفصال العنيف في اللحظة الأخيرة قبل الميلاد قد يؤدي إلى مرض عقلي أو إعاقة بدنية. بعد كل هذه المعاناة ننتظر طفلاً مختلاً.. منقوصاً.. من ذوي الاحتياجات الخاصة.. أو ميتاً.. احتمالات سوداء، لا نعلم أيها سيختار القدر لنا! كيف نتماسك ونظل على اللهفة نفسها؟ هل اغتربت أنا وزوجتي كل هذه السنين في صحراء الدمام كي نربي طفلاً معاقاً لا مستقبل له؟!

نزفنا من مالنا ودمنا وأعصابنا ما يكفي.. سأقول للطبيب:

من فضلك نحن نحترم رغبة طفلنا. دعه.. ساعدنا كي نعيده مرة أخرى إلى المجهول الذي أتى منه. لكن كل كوابيسي، كل نواياي الشريرة، كانت تتبدد وتذوب حين أقف بالقرب من جهاز السونار ويرقص قلبي فرحاً على نبضات قلبه القوية المضاعفة:

«بُم.. بُم..بُم»

نبضات حياته الواعدة التي لم تبدأ بعد تظهر متموجة ومضيئة على الشاشة، تدوي في صدري. أبتسم بوهن، تلين ملامحي وأشد على يد زوجتي، أشعر أن نبضاتنا نحن الثلاثة تجري في شريان واحد. فرحة خفية تربط بيننا وأمل غامض بأنه سينجو.

أقف في ردهة المستشفى مدخناً آخر سيجارة. ثاني علبة، ثالث علبة، لا أذكر. أقوم بتمارين على أنفي حتى لا يستنشق المزيد من رائحة الديتول المنتشرة. ألعن في سري صور الإعلانات الكبيرة التي تحيط بي في كل ممر أذهب إليه: تبييض الأسنان، التخلص من الشعر الزائد، وداعاً للنظارة الطبية. يالرائحة ندى الصباح حين كان يهبط حنوناً على أوراق الصفصاف فيغسلها.. الندى في قريتي كانت له رائحة مسكرة وملمس دافئ رقيق.. لكنه الآن بعيد.. بعيد إلى درجة

الألم. كل أشيائي الأولى أصبحت بعيدة وغائمة.. مهزوزة في مرآة الوجود الذي لم يعد موجوداً.. لا أعرف هل كانت النقطة الأولى أفضل أم آخر نقطة وصلت إليها؟!

من وراء الأبواب الموارية ألمح أَسِرة المستشفى، مرضى كثيرون يستلقون عليها في أوضاع هزلية. مذعورون من الموت، مستسلمون له. نساء لا أرى وجوههن يصدرن أنيناً خافتاً. مريض عجوز كان يسعل وهو يمر أمامي وعلى أذنه راديو بحجم الكف وعبد الوهاب يغني بصوت خفيض: «فين طريقك فين؟ بيروحوا له منين؟» بعد دقيقتين عاد وعبد الوهاب مازال يغني الأغنية نفسها.

ممرضات أتعب السهر عيونهن يقفزن حولي في الممرات البيضاء مثل غزلان تسترخي في طرقات المستشفى. فلبينيات ومصريات وهنديات كلهن في زي أبيض موحد: حذاء خفيف، سروال قطني، بالطو، وغطاء رأس. كلهن كن يضعن أيديهن على بطونهن الممتلئة ثم يقفزن بعيداً عني! إحداهن رفعت إصبعيها السبابة والوسطى في إشارة شبقية كي أفهم أن التدخين ممنوع.

طنين عميق في أذني. أُرخي جفني على عينين أجهدهما أرق ونوم متقطع. أنتبه كلما مرت ممرضة نحيلة ليست حاملاً

وفي يدها كيس أسود ينز سائلاً غريباً على حذائها الأبيض. أرفع جفني بتثاقل متطلعاً، أحسبه طفلي حياً.. طفلي عالقاً داخل الكيس يصرخ لكن لا أحد يسمع صراخه.

ألعاب الراعي

«وهكذا هي حياتي المعجبة بالشمس والقمر- تشبه شيئاً لم يحدث» الشاعر الأميركي إ.إ.كامينغز

رأيته بين السحاب.

لونه أسمر مثل الشوكولاتة البنية. وجه كبير، مستدير كأنه يملأ السماء. كان يظهر ويختفي بين سحب زرقاء وبيضاء. يحرك في الهواء عصاه الخيزران ويبتسم.

كان عملاقاً بشوشاً حافي القدمين يمر مر السحاب.

حكيت لفاطمة صاحبتي لما قابلتها عند الجميزة في الساحة الواسعة خلف بيتنا كيف رأيته في السماء.. عجوز أسمر مثل جدي قبل أن يسافر عند ربنا، محني قليلاً مثله لكنه يرتدي عباءة بيضاء يموّجها الهواء.

سألتني عن لون عينيه، قلت لها لا أتذكر!

«هذا الراعي الطيب يوزع الهدايا على الفقراء الطيبين فقط»، هكذا أكدت لي فاطمة كأنها تبوح بسر. لكنه لا يحب أن يراه أحد. يخفيها تحت الوسادة، وراء الباب، وفي مرات يعلقها بحبل في سقف الغرفة. مرة أخفى لها عروسة جميلة جداً وسط جوال العدس، وأمها عثرت عليها بالصدفة.

قلت لفاطمة إنني أيضاً لدي ألعاب كثيرة مثلها، تركها لي الراعي الطيب تحت الوسادة. لكن الحقيقة أن الراعي الطيب لم يترك لي شيئاً وليس لدي أية ألعاب سوى «نوسة». عروستي القماش التي يغطيها فستان أحمر ولا أعرف من اشتراها لي!

سألتني لماذا لم أحاول أن أرى عينيه؟ قلّبت يدي في الهواء وقلت لها: لا أعرف!

في الليل، واربت النافذة دون أن تحس أمي فهي كانت تتأوه من الألم في الغرفة الجوانية المعتمة. سأراقبه وهو يطرق بيوت الجيران الفقراء أمثالنا، ويضع الهدايا للعيال أمام عتبة الباب ثم يجري بسرعة في الظلام قبل أن يلمحه الأشرار. أبقيت عيني مفتوحتين تقاومان النعاس. سأنتظر وأراه وهو يخفي ألعابه. أعلم أنه في كل مرة يختار مكاناً لا يخطر على بال بشر.

في هذه المرة سأجعل عيني في عينيه. رأيته هناك. أضاء بجبينه الجبل الغربي. ثم هبط من أعلى الجبل ومشى برجليه فوق النهر. كان يرفع طرف عباءته حتى لا يطالها الماء. فكرت أن أنادي عليه لكنني لم أكن أعرف اسمه!

كانت أمي كعادتها في الظهيرة تستلقي في الصالة على الأريكة الوحيدة التي نمتلكها، بجوارها طاولة بيضاء صغيرة.

متسخة بخراء الذباب. وعلى الطاولة علب الأدوية التي كانت تضعها في كيس أبيض شفاف وتتناولها ثلاث مرات كل يوم. كانت ملفوفة في ثوب أبيض لا يظهر منها سوى وجهها المصفر. اخترق المرض منذ سنوات جسمها الضخم مثل كرة عجين عملاقة.

لا أحد في البيت سوانا، أنا وأمي. ولا يزورنا أحد سوى جدتي أم السعد. تأتي من آخر البلدة على حمارها الأعرج، كل يومين أو ثلاثة. سمعتُ أمي تنادي بصوتها الواهن. طلبتْ مني أن أغلق النافذة ولا أتطلع إلى السماء طويلاً لأن الشمس ستؤلم عيني.

واربت النافذة ولم أغلقها تماماً كما قالت. لو أن السحابة الرمادية البطيئة تزحزحت عن مكانها قليلاً، حتما الراعي يختبئ وراءها. لا أريد منه أن يخبئ لي هدية تحت الوسادة مثل فاطمة. فقط أن يعالج أمي من السخونة والسعال وبصق الدم. أليس علاج أمي أسهل من الطيران بين السحاب والمشي فوق الماء؟!

سألتها لماذا لا تطلب من الراعي الطيب أن يعالجها؟! أدارت وجهها إلى الجدار ولم ترد.

لن يكلفه الأمر سوى أن يمرر يده على جبينها ويتمتم

بالآيات. لكن ليس معقولاً أن يدخل من النافذة مثل اللصوص! تركتُ له باب البيت مواربأ في الليل لكنه أيضاً لم يأت.

لماذا لا يظهر مرة رابعة وخامسة؟!

هو لن يظهر حسب مزاجي، ولا كلما احتجت إليه استجاب لي. يظهر فقط وقتما يريد، قد يتنكر في هيئة راعي غنم أو تاجر أبقار أو يمضي على الطريق مثل شحاذ أعور دون أن ينتبه إليه أحد. لا أنا ولا فاطمة ولا أي أحد من الجيران الذين كانوا يتلصصون علينا أنا وأمي. صحيح أن الذين يسافرون إلى السماء لا يعودون مرة أخرى لكن ما المانع أن أسأله في المرة القادمة إذا كان هو نفسه جدي؟!! سأدقق أكثر في ملامحه الغامضة وأعرف لون عينيه!

صالة بيتنا كانت ضيقة جداً مثل ثقب، تنتشر فيها رائحة المرض وأسراب ذباب أسود طنّان. بالكاد تدخلها أشعة الشمس. الراديو في صندوقه الخشبي فوق رف صغير خلف باب الصالة، وكان عبد الوهاب يغني رغم الخرفشة «محلاها عيشة الفلاح».

سألت فاطمة: لماذا لم يهبط علينا ويعالج أمي؟! فقالت: لا تثق كثيراً في الذين يطيرون في السماء!

تركت فاطمة تحت الجميزة وكنتُ غاضباً. في كل خطوتين

أتطلع إلى السماء وأداري دموعي حتى لا يراها الجيران. الجيران الذين كانوا دائماً يتلصصون علينا. وكانت جدتي أم السعد عندما تأتي تشتمهم لكن دون فائدة!

بلدتنا صغيرة جداً، في أولها محطة قطار لا تتوقف بها القطارات، وفي آخرها ثلاث شجرات موز يسرقها اللصوص حتى قبل أن يَصفر الموز!

ما بين محطة القطار وشجرات الموز يروح ويجيء الشيخ حسن المجنون حافياً.. من أول البلدة إلى آخرها.. يهرش لحيته الشهباء وشعره الطويل مثل شعر الغجر وهو يشتم ويسب الذين سرقوا النحاس.

صعدت وحدي إلى محطة القطار. من على الرصيف العالي كنت أرى البيوت صغيرة، وبعيدة وراء النهر، على اليسار بيت الخفير بدر وامرأته شلبية، وكان ابنهما علي يلاعب ثلاثة أو أربعة كلاب صغيرة. على اليمين صف من أشجار الجازورين في وسطه نخلة بلح. هناك رأيته بعلو النخلة على فرس بيضاء. كان في التفاتته نحوي حنان لكنه لوى عنق فرسه مسرعاً دون أن يقول أية كلمة. مضى في اتجاه آخر، بعيداً عن محطة القطار التي كنت أجلس عليها.

كان مثل شبح يقترب ويبتعد، يأتي ثم لا يأتي! لو توقف

علي بن بدر وشلبية لحظة واحدة عن ملاعبة الكلاب ونظر بعينه ناحية السماء لرأى طيران الراعي في السماء وهو فوق فرسه! معقول، علي بن بدر وشلبية وجدتي أم السعد وفاطمة وكل أهل البلد عميان وأنا وحدي الذي أراه؟!

الشمس حمراء كبيرة وهي تغيب وراء الجبل الغربي. لا أعرف كم مضى من الوقت. جدتي أم السعد ستضربني على التأخير! حذرتني من النوم وحدي على ضفة النهر والذهاب إلى محطة القطار. قالت:«من يخرج من داره يقل مقداره».

عصيتها وخرجت.

ظللت واقفاً وحدي على حافة النهر أتأمل دوامات المياه الصغيرة وهي تتلاشى. كان هناك بيض كثير، بيض كبير الحجم يشبه بيض الإوز. وكان يتدحرج من بين عيدان الغاب والتين الشوكي المنتشر هنا وهناك ويثير دوامات صغيرة. بيض كثير جداً يتدحرج بسرعة ويسقط في النهر.

حكيت لفاطمة فسألتني إذا كنت رأيت إوزاً على الشاطئ، فقلت:«لا»! فسألتني ثانية:

- ولمستَه؟

- قصدك البيض؟

- آه

- لا

حذرتني من لمسه في المرة القادمة وقالت: «بيض الثعابين والحيات فقط هو الذي يتدحرج من الجبل إلى النهر.. بيض مسموم». لم أعرف كيف أشرح لها أن البيض تدحرج من الجبل في اللحظة التي صعد فيها الراعي واختفى وراءه.

أخبرتها أنني سأغادر البلدة غداً، سأركب القطار الأبيض وأذهب إلى المدينة البعيدة. أمضي إلى مكان آخر لا أعرفه. وبعدها أمضي إلى مكان آخر لا أعرفه. ثم إلى مكان آخر لا أعرفه. أقسمت عليها بالختمة الشريفة ألا تخبر جدتي أم السعد.

على رصيف المحطة، استلقيت على آخر أريكة خشبية. حاولت ألا أشغل بالي بالراعي. لو كان لديه فرس يطير بها فأنا سأركب القطار إذا أبطأ في محطتنا دقيقة واحدة.

لحظة أن فتحت عيني لمحته يطير فوق شجر الجازورين والشيخ حسن كان خلفه على الفرس. تحاشيت النظر إليه. لا أكرهه لكنني لا أفهمه. ألم يكن من الأفضل بدلاً من أن يتنزه في السماء هو والشيخ حسن أن يعالج أمي من بصق الدم؟!

أطلق القطار الأبيض صافرة طويلة وهو يدخل محطتنا مثيراً زوبعة غبار خفيفة. أسرعت نحوه، وعندما أبطأ جداً أمام الرصيف تهيأ لي أنني سمعت صوت جدتي أم السعد خلفي.

كتاب دبي الثقافية 92
الإصدار «٩٢» سبتمبر ٢٠١٣

فتحت نافذة بيتنا المطلة على النهر، كأنها شبح غاضب:

«ارجع يا ابني»

«ارجع يا ابني»

ما الذي سيحدث لو لم أرجع؟!

فشلت في ضبط قفزتي مع سرعة القطار الذي تلاشى ضجيجه سريعاً في الأفق. استلقيت ببساطة على الأريكة الخشبية ذاتها. هو يحبني وأنا كنتُ مستعداً للذهاب معه إلى أعلى الجبل إذا نادى عليّ. حتى دون أن أعرف اسمه أو أرى لون عينيه! لكن لماذا لا يتوقف قليلاً ونتكلم أو حتى أنظر في عينيه وأعرف لونهما؟!

زوابع وريح تشكلت أمام عيني كأنها فرس. ثم ظهر وسطها ممتطياً صهوة الريح وعباءته تتطاير في الخلف.. كان رائقاً هادئاً، ملامحه لا تشبه ملامح جدي. ظل واقفاً لدقائق على حافة النهر الذي يلتف مع شريط السكة الحديد. سأقبض على طرف جلبابه قبل أن يغادر. قفزت وراءه، و«نوسة» كانت في حضني، فسقطتْ من يدي. سحبها الماء الجاري. في ثوان ظهرت على مسافة بعيدة جداً وسط النهر وكانت مقلوبة على وجهها، فلو نظر الراعي العجوز إليها من السماء لن يعرف أنها عروستي «نوسة».

«نوسة» جرفها النهر، والقطار الأبيض مرّ ولا أحد يدري متى سيعود!

قفزت بكل قوتي خلفه، وكلما أوشكت يدي أن تطول طرف عباءته، كان يصعد بعيداً أعلى الصخور.

«أمي»..

أمي هناك.. رأيتها أعلى الجبل في ملابسها البيضاء تراقبنا. من بعيد قذفت في وجهي عروستي «نوسة» وهي تشوّح بيدها غاضبة حتى لا أستمر في الصعود وراء الراعي العجوز.

العجوز الذي يراقبنا

حلم الفيلسوف الصيني تشوانغ تزو بأنه فراشة،
فلما استيقظ لم يدر إذا ما كان بشراً حلم أنه فراشة،
أو أنه فراشة تحلم الآن بأنها إنسان!

جارنا بدر وزوجته شلبية كانا يظهران لي دائماً في الحلم، في الليل، وهما غاضبان.

بدر قارب الخمسين، نحيل ومصدور. لا يتوقف طول الليل عن السعال وتدخين الشيشة أثناء خفارة الشونة. لحيته تظل أكثر من أسبوعين بلا حلاقة، يتركها هكذا غير مشذبة، يخالط سوادها بياضها. فآثار الشيب ظهرت على وجهه قبل الأوان بسبب حرارة شلبية وكثرة مائها فهي امرأة عفية تصغره بخمسة عشر عاماً على الأقل. لا ترتدي إلا جلابيب سوداء تستر لحمها العاري وتلتف حول استدارات جسدها. مؤخرتها ضخمة بصورة لا تتناسب مع نحول نصفها العلوي. كما لا تتناسب خشونة يديها مع بياض صدرها.

كانا يزعقان في وجهي في الحلم كي أسدد ما عليّ من ديون. ظلا يكرران الكلام نفسه ويقولان إنهما جمعا القطن من أرضنا ولم يحصلا على أجر. وهذا لا يرضي الله ورسوله.

مثل هذا الكلام جارح جداً وفيه إهانة كبيرة لي ولعائلتي المعروفة بالكرم وطيب الأصل. فنحن لا نأكل عرق الأجير، ولا نتجبر على المساكين. أكدت لهما في الحلم طبعاً- أن أبي وأمي زاملا في جمع القطن من أرضكما أيضاً. يوم مقابل يوم، فدان مقابل فدان.

شلبية صرخت. رفعت حاجبين عريضين ومتصلين. بحلقت كاللبؤة وضربت صدري بيديها. كانتا خشنتين وملوثتين بالروث، ارتطمتُ بجسمي كله لصق جدار بيتنا. حمدت الله في سري لأنه لم يكن بيني وبين عمود الإنارة سوى شبر واحد وإلا انكسرت ضلوعي.

تراءت أمام عيني دوائر وبقع ضوئية ملونة. كدتُ أن أصرخ فزعاً لولا أن ظهر لي رجل عجوز يقف على الناصية ويرتدي جلباباً أبيض. وإن كنت لا أتبين ملامحه. قد يكون شبح جدي لكن لماذا لا أراه في داخل بيتنا، في «المندرة» حيث اعتاد الجلوس والنحنحة والتسبيح وإشعال أعواد البخور والاستماع إلى الشيخ المنشاوي؟ لماذا يقف هكذا في كل مرة على ناصية الشارع يراقب الخناقة بيني وبين الخفير بدر وامرأته شلبية؟

صاحتْ شلبية وهي تمسك بخناقي ولا تفلتني:

«حرام عليك يا مفتري يا واكل مال النبي»!

الحارة كلها تقريباً وصلت على صراخ شلبية. وانضم إلى التجمهر خمسة أو ستة أشخاص يرفعون السيوف وملابسهم غريبة كأنهم في فيلم عن غزوة أحد.

دفعتها عني وبكل يمين مغلظة أقسمت لها إنني لم آكل مال النبي ولا مال غيره!

زوجها بدر كان واقفاً على الرصيف الواطئ، يدخن سيجارة. يراقبنا من بعيد ولا يتكلم. ظهرت فوقنا امرأة عارية تماماً، كانت تطير بجناحين وتبتسم لنا، وشعرها منكوش مثل غجرية، فصرخ عليها بدر: «انزلي.. تعالي هنا»، لكنها لم تهبط بل ظلت تحلق وتدور حولنا. ثم جاء بقية الجيران على صياح شلبية العالي من شارعنا ومن شارع آخر خلفنا. من بينهم امرأة عمي. هي تحبني، لكن بدر ابن خالها الكبير.

أقسمت لامرأة عمي: أنت تعرفين أننا لا نأكل عرق الأجير. فهل معقول أن نأكل عرق بدر وشلبية ونحن أهل وجيران؟! تصورت أنها ستدافع عني بعدما شرحت لها الموقف. لكنها ظهرت في الحلم متوحشة مثل شلبية. صرختْ وبحلقتْ ووضعت طرف طرحتها بين أسنانها ودفعتني في الجدار لأنها هي الأخرى لن تتنازل عن تعب وشقاء بدر ابن خالها الكبير. اقترحت أن نجلس جميعاً جلسة عرب في أي بيت ونحتكم

إلى شيخ الحارة. قلتُ ذلك وأنا أنظر من بعيد في عيني الرجل العجوز الذي يراقبنا، ويختلس النظرات نحوي. يبدو راضياً عما يحدث لي من إهانة ولزق ظهري في الجدار. طالما لم يدفعني إلى الجدار مثل الآخرين، فهو إذاً شيخ الحارة.

ثلاثة أو أربعة أحلام متكررة أرتطم فيها كلها بالجدار نفسه! مرة من شلبية ومرة من امرأة عمي، حتى بدر رغم انحناءته وضعف بنيته هجم علي وكشف عن أسنانه الكبيرة المصفرة وهو يزبد ويرعد بكلام غير مفهوم، ثم دفعني بعنف نحو الجدار على بعد شبر أو أقل من عمود الإنارة.

هكذا هو طبع الفلاحين، عندما تغلق جميع الأبواب في وجوههم يغضبون غضبة جمل، ويبحثون عن ضحية يأكلونها بأيديهم وأسنانهم. إنهم همج حين ينفد صبرهم. قد يفتحون بطن عدوهم بالمنجل أو يشقون رأسه بالفأس، دون ذرة ندم واحدة.

كنتُ أتلفتُ حولي في الحلم العجوز صامت كما هو والمرأة العارية ذات الجناحين تبتسم وتدور حولنا. لا أفهم لماذا لا يقبلون أن نجلس جلسة عرب ونتكلم ونصلي على النبي العدنان؟! حتى امرأة عمي تحالفت ضدي دفاعاً عن ابن خالها! وابن عمي نفسه وقف كالفرخ المبلول بجوار أمه المتنمرة!

لماذا يظهر بدر وشلبية في حلمي بهذا الشكل المتكرر؟ هل لهذا الأمر علاقة بمجيء ابنهما علي كي يعمل صبياً في سوبر ماركت كبير في القاهرة؟ كانا أوصياني به خيراً بعد أن تطورت حياتي وأصبحت قاهرياً. وإن لم أتخلص تماماً من لكنتي الفلاحية عند الغضب. بصراحة، عندما سكن علي معي، كنت أضربه على قفاه لأنه ولد أبله، ورائحته قذرة. لا يغتسل بالماء والصابون إلا كل شهرين. حتى لو لسعته بالسيجارة في بطنه لا يستحم.

لا يناديني إلا «عمي». كل الناس كان يناديهم بهذا التأدب حتى حارس العمارة. رغم أنني في الحقيقة أكبر منه بخمس سنوات فقط. إذا سألني عن معلومة كنت أقول له أي كلام، مرة سألني: «ده اسمه إيه»؟ وأشار إلى «الأسانسير» الذي يركبه معي، فقلت له: «دا السنترال يا علوة»! كلما سمعته يكلم أمه في الهاتف، كان يخبرها أنه يركب «السنترال» بمفرده، فأستلقي من الضحك. ولد أبله لن يفهم أي شيء أبداً!

المرأة العارية التي تطير فوقنا خطفت رضيعاً صغيراً من على صدر أمه وهربت في السماء الواسعة. صرخ كثيرون وصرختُ معهم وأنا أفلت بجسدي من بين يدي بدر وشلبية. عادت المرأة الطائرة فأعطت لأم الرضيع حمامة بيضاء والأم

ضمتها في حضنها وابتسمت راضية. صاح الخمسة حاملو السيوف:«الله أكبر» فعرفت أنهم من المسلمين وليسوا من الكفار. نظرت للمرة الألف نحو العجوز الصامت:

«أليس هناك شيخ واحد عاقل نحتكم إليه؟!»

لكنه تسمّر على بعد خطوات منا، وتحاشى النظر إلي. لا يريد أن يتورط في الخناقة. كان رذاذ الندى يتساقط حول كتفيه وتفوح منه رائحة نبيذ معتق أو رائحة الخشب في الشتاء. هذا العجوز ليس جدي! وإلا كان دافع عني، أيضاً جدي كان يعرف كيف يدخل البيت وهو حي محدثاً جلبته المعهودة فهل أصبح عاجزاً عن الدخول بعدما صار شبحاً؟!

سألته من بعيد:

ـ أنت جدي؟!

هز رأسه نافياً، وقال:

ـ أنا غريب.. لا أعرفك ولا تعرفني.

كانت الصيحات ضدي في الحلم مستمرة إلى الفجر، تاه صوتي.. عن صوته.. عن أصواتهم.. أشعر بألم شديد في عمودي الفقري من شدة دفعي مرات في الجدار. القرية كلها

تبادلت لصقي في الجدار. الوحيد الذي لم يظهر في الحلم من أهل القرية هو علي بن بدر وشلبية. ومن يدري؟ ربما ظهر دون أن أراه!

رغم صمت الرجل العجوز ووقوفه كالصنم بثوبه الأبيض الوقور، لكن وجوده كان مريحاً لي، ومنحني إحساس الطمأنينة. حاولت أن أشرح له وأستعين به كشاهد على الموقف من أوله. بدر كان معدله في جمع القطن نحو خمسة وثلاثين كيلو في اليوم وشلبية نحو أربعين أو خمسة وأربعين كيلو. نحن لا نظلم أحداً أبداً ولا نأكل عرق الأجير. بدر لديه فدانان، ونحن لدينا فدانان، هو وامرأته تزاملا مع أبي و أمي في جمع قطننا، يوماً بيوم. وأبي وأمي تزاملا مع بدر وامرأته في جمع قطنهما. المزاملة كما تعرف شهامة ومحبة بين الأهل والجيران لذلك لم نكن نتوقف كثيراً عند الميزان وأيهما جمع أكثر من الآخر. لا أدري لماذا أخفيت عنه تفاصيل حكايتي مع علي بن بدر وشلبية. لكنه هز رأسه أخيراً ونظر إلي نظرة مواربة كأنه يعلم ما في قلبي وما أخفيت عنه.

في تلك الأيام البعيدة كنتُ طفلاً مفتوناً برائحة القطن الدافئ وقد علقت به قطرات الندى وكان أبي يتركني أتمرغ فيه. والأرض أصلاً كانت مؤجرة بنظام المُزارعة، بيننا وبين

المُلّاك. أرضنا وأرض بدر. لكن الحكومة انتزعتها كلها من خمس عشرة سنة، وأعادتها للمُلاك أصحاب فلل المارينا ومراقيا. يعني كلنا أصبحنا فلاحين من غير أرض، حتى المزاملة انتهت، كل فلاح يشتغل الآن في أرض غيره بالجنيه، والجنيه الآن كما تعلمـ لا يشتري بيضتين.

بدا العجوز صامتاً كأنه ينكرني أو لا يفهم. ثم دنا مني وقال:

- يا ابني.. أنا غريب في حلمك.

نظرت باستغراب. فصرف الناس جميعاً بإشارة من يده. الجميع انصرف في هدوء في غمضة عين. بدر وامرأة عمي وابنها والمرأة التي ارتضت بحمامة بدلاً من رضيعها، وحاملو السيوف الخمسة الذين كبروا مرتين على الأقل، حتى شلبية بصقت في وجهي وانصرفت. كل أهل الحارة انصرفوا عدا الشيخ حسن مجذوب القرية والذي لم أره من قبل، لمحته واقفاً في البعيد داخل المصلى المسور بالطين على حافة النهر، كان منتشياً في رقصة صوفية، يتمايل برأسه وجذعه ويصفق بيديه في إيقاع أبدي.

أحاط العجوز كتفي بذراعه وقال:

«ساعدني يا ابني.. أعتقني من حلمك».

لا أدري كيف يدخل عجوز إلى حلمي بالغلط! ولا كيف يعجز عن الخروج وهو له كل هذه الهيبة والنفوذ على جميع الموجودين في الحلم!

«خناقتك السخيفة.. شاهدتها خمسين مرة ولم أفهم أي شيء»!

شرحتُ له أن حلمي سيصبح ناقصاً إذا خرج منه هكذا بكل سهولة، ثم لا أنا ولا غيري نستطيع أن نتحكم في من يدخل أو يخرج من أحلامنا! وطالما أن له كل هذه الهيبة على الموجودين في الحلم، فلماذا لا يغادره بدلاً من أن يتسلى بالفرجة عليّ وهم يلصقونني بالجدار ويصرخون في وجهي؟

تمشينا خطوات قليلة وهو يحيط بي. ثم عاودنا الوقوف أمام بيتنا، على بعد أمتار من النهر. مازال يضع يده بحنو على كتفي، وشمس الصباح لم تسطع علينا بعد:

«يا ابني افهم.. طول ما أنا محبوس في حلمك.. عليّ بن شلبية سيظل تائهاً كالأبله في حلم شخص آخر. وبدر وشلبية لن يتوقفا عن لصق ظهرك بالجدار»

عصر السنجة

زارني بلال صاحبي ليلاً. طرق نافذة غرفتي التي لا يفصلها عن النهر سوى شارع ترابي ضيق.

سمعت صوته بالبحة الخشنة لكنني عاودت النوم. بلال ميت منذ سنوات، فأثناء انتخابات مجلس الشعب ضربه بلطجي ضربة «سنجة» طلعت معها روحه.

أكيد رجع من قبره لكتابة يافطة ستة أمتار تأييداً للمحافظ الجديد! فأعضاء الحزب الحاكم أشاعوا منذ أسبوع أن المحافظ سيزور القرية لافتتاح أول مخبز نصف آلي. لهذا السبب أعد كبراء القرية خلال الأيام الماضية عشرات العرائض والشكاوى لعرضها على سيادته أثناء الزيارة، لدرجة أن عم عبده البقاش وقف بعد العصر قدام الجامع الكبير، ثم خلع جلبابه وصاح وهو واقف بالسروال الداخلي:

«البلد كلها انجنت وكتبت ضد بعضها فدان شكاوى للمحافظ»!

واربت النافذة فرأيته واقفاً كالعادة وقد ثنى ذراعيه فوق بعضهما مستعرضاً عضلاته. لا طلب مني كتابة شكوى جديدة ولا يافطة تأييد للمحافظ بل أمرني أن أصحو في الفجر

وأستعد لمشوار مهم جداً. الأمر سري للغاية وتم انتقاء عشرة شباب فدائيين على الفرازة هكذا قال من كل قرية على مستوى الجمهورية.

سألته وأنا أنبه نفسي كي أستيقظ أكثر:

«أنت بلال فعلاً؟»

وتحسست على رأسي موضع ضربة «السنجة» التي قتلته، فهز رأسه إيجاباً ثم قال:

«المهم استعد للسفر على مصر»

«مصر.. مصر؟»

أضاف بحماس إن آلاف الشباب تم انتقاؤهم من كل المحافظات سيذهبون إلى الصالة المغطاة في استاد القاهرة.

ليست هذه هي المرة الأولى التي يطرق فيها بلال بعد مصرعه نافذة غرفتي ويطلب مني طلبات سرية للغاية، فهو رغم موته ظل مولعاً بالعمل السياسي ولا يتأخر عن أية مهمة وطنية.

نحن كنا أصدقاء منذ الابتدائي لكن بلال بجرأته أصبح أمين شباب الحزب على مستوى المركز، وأنا مجرد خطاط يكتب الشكاوى ويرسم لوحات الجغرافيا للتلاميذ وينسخ قصائد شوقي وحافظ بخط كوفي على ورق ملون.

المنصب الذي كان يشغله بلال صاحبي في الحزب الحاكم قد يبدو متواضعاً لكنه بالنسبة للقرويين أمثالي يعطيه الحق في أن يجلس مزهواً على قهوة الحاج نشأت و يضع ساقاً على ساق ويشرب أيضاً على الحساب.

تعودنا أن نلتقي بعد صلاة العشاء على القهوة مثل غيرنا من الموظفين وطلاب الجامعة وأبناء المدرسين الذين يعملون في السعودية والعراق والكويت. كل من يشعر بأهمية نفسه في القرية يجلس عليها أما الصعاليك والأوباش فمكانهم الطبيعي غرزة أبو ربيع.

لكن بصراحة في مرات قليلة كنا نفضل أنا وبلال غرزة أبو ربيع ندخن سيجارتين حشيش أو نطرقع زجاجتين بيرة على شرف أفلام ناهد شريف وشمس البارودي وشويكار.

بعد صلاة الفجر مباشرة التقينا في الملعب الرئيسي. عشرات الشباب جاءوا من بقية القرى التابعة للمركز والتفوا وسط ضوء مغبش وباهت. ضباب أبيض كثيف يجعلنا لا نرى أبعد من أنوفنا. كلنا أخفينا أيدينا في جيوبنا بسبب لسعة البرد. بلال بشحمه ولحمه بعد رجوعه من القبر وقف أمامنا وهو يغطي رأسه بقطعة شاش. أفهمنا أن الأتوبيسات السياحية المكيفة ستقلنا إلى استاد القاهرة مباشرة، ولأن

الرحلة تستغرق أربع ساعات ومثلها في العودة، ستقدم وجبة غداء عبارة عن نصف فرخة مشوية وعلبة بيبسي.

سرت شائعة أن الحاج حامد الصفطاوي تاجر الحبوب والأعلاف المشهور تبرع بهذه الوجبات كلها، لكن بلال لم يؤكدها ولم ينفها.

الموقف نفسه بكل تفاصيله حدث من قبل خمس أو ست مرات، بكل ما جرى فيه، كل الروائح والأصوات والأحاسيس وما دار في عقلي خلال السفر. أعلم طبعاً المهمة السرية ولماذا سنسافر إلى مصر، لأنني ببساطة خرجت مع بلال في المهمة نفسها أكثر من مرة، قبل موته، وبعد موته أيضاً. وأستطيع أن أحكي بالتفاصيل عن كل المفاجآت التي سنمر بها، وهي لا تعتبر مفاجآت لأنني مررت بها. كأن عطلاً أصاب شريط الزمن فأعادني إلى لحظة سبق أن تجاوزتها أكثر من مرة في السنوات الماضية لكنها تعود مرة أخرى فأوهم نفسي بأن أعيش فيها كأنها لحظة جديدة. أو كأن قوة غامضة تعيدني إلى لحظة قديمة، كي أعيشها من جديد مرة ثانية وثالثة.

ها هو بلال أمامي حي يزرق، رغم أنه يعلم طبعاً أنه لقي مصرعه في انتخابات مجلس الشعب سنة ١٩٩٥ وهو يحاول أن يفدي بجسده الرياضي مخبراً سرياً. رأيته بأم عيني والدم

يتفجر كالنافورة من رأسه وهو يحبس الدم ضاغطاً بكفيه ويصيح في وجوهنا باللغة العربية الفصحى كأنه يؤدي مشهداً في مسرحية:

«لن تؤثر.. لن تؤثر»!

كان الفزع من الموت على وجوهنا نحن وليس في عينيه المتشبثتين بالحياة إلى أقصى ما تسمح مقاومته للسقوط. سبحان الله، هكذا بكل بساطة أودت ضربة سنجة طائشة بحياة ابن الحزب البار مع أن المرشحين كلهم كانوا من رجال الحزب البارين أيضاً!

بعد ربع ساعة بالضبط ستصل ستة أتوبيسات سياحية زرقاء، وبعدها ننطلق من أمام مديرية الشباب والرياضة. وقد تم توزيع «تي شيرتات» بيضاء على كل واحد فينا. ليس مطلوباً منا سوى ارتداء «التيشيرت» الأبيض لنظهر في صورة جماعية معبرة على شاشة التلفزيون. وبمجرد أن ركب كل منا في مقعده داخل الأتوبيس، خلعنا القمصان ووضعناها بعناية في أكياس بلاستيك ثم ارتدينا «التيشيرتات» في حركة جماعية كأننا في غرفة تغيير ملابس قبل مباراة كرة القدم ولسنا في أتوبيس سياحي. وانطلق أحدنا بصوت عريض يتلو دعاء السفر ونحن نردد خلفه:«واطو عنا بعده».

زميلنا هذا الذي تعودنا أن يتلو علينا دعاء السفر كلما خرجنا في مثل هذه المهام، كان في الأصل منتمياً إلى جماعة الإخوان وبعد استدعائه أكثر من مرة في مباحث أمن الدولة على كورنيش الأعصر في دمياط، استخرج كارنيه الحزب وقطع علاقته بالإخوة. هو أيضاً لقي مصرعه أمام محل عمر أفندي، وسبحان الله! بضربة سنجة أيضاً، لكن أثناء استفتاء عام ١٩٩٣ طبعاً هذا لم يمنعه من المشاركة معنا في كل المهام التالية، لكن انتظامه الحزبي معنا حتى بعد موته لم يفده كثيراً لأن التقارير الأمنية ظلت دائماً ترجح أنه لم يقطع علاقته بالجماعة المحظورة!

كان الطريق ترابياً ملتوياً، تتقاطع عليه، من فوق رؤوسنا، يافطات قماش عريضة، معلقة على أعمدة الإنارة وأشجار الكافور. تدعو لانتخاب المرشح رمز الجمل ورمز الهلال، وعليها عبارة: «انتخبوا الرجل صاحب الأيادي البيضاء»!

هذه هي الانتخابات المشؤومة التي ذهب بلال ضحيتها، ومعه خمسة من شباب الإخوان أصيبوا بعاهات مختلفة منها قلع العين وقطع فروة الرأس، لولا أن دبر لهم أحد الموسرين جزاه الله خيراً ألفي دولار لكل منهم للهجرة إلى إيطاليا بالاتفاق مع سمسار من عزبة البرلس قام بتخزينهم في إحدى

السفن أسبوعين. ثم انقطعت أخبارهم.

كنت أطالع بصعوبة صور المرشحين وملصقاتهم الزرقاء الباهتة التي لطخت حيطان الجمعية الزراعية، ومركز الشباب، وجمعية الشبان المسلمين، والوحدة المحلية والوحدة البيطرية.. كلها وجوه سمينة وشوارب كثة، هذا له عاهة في الخد وزميله الآخر عينه حولاء والثالث براطمه غليظة مقلوبة إلى الخارج. كيف يكون مثل هؤلاء من أصحاب الأيادي البيضاء؟! كل المرشحين الذين تُعلق لهم اللافتات في مواسم الانتخابات، على الشاكلة نفسها، كأن هناك مصنعاً سرياً ينتج هؤلاء المرشحين بمواصفات غير مريحة للعين! وجوههم لا تدل سوى على تجار مخدرات أو قطاع طرق على شاكلة الذين يظهرون في أفلام فريد شوقي ومحمود المليجي، لكن طبعاً المهم أعمالهم وإنجازاتهم وليس صورهم وأشكالهم.

مع إشراقة الشمس كنا قد غادرنا مديرية الشباب والرياضة وأصبحنا على طريق القاهرة دمياط، كنت أتمتم بآية الكرسي وأدعية مرتبكة تأتي عفو الخاطر، وكان صوت محمد قنديل عالياً في الراديو يغني «أبو سمرة السكرة».

أكثر ما كان يضايقني مسألة «الأيادي البيضاء» هذه والتي تتكرر في كل يافطة على نواصي القرى التالية! كيف؟

هل يعقل أن مرشحاً واحداً له «أياد»؟ وكيف تكون « بيضاء»؟! كأنه عبد المنعم إبراهيم في فيلم» طاقية الإخفاء» يرش على كل يد «بودرة العفريت» فتصبح بيضاء، ثم يطلقها تدور وحدها منفصلة عن جسده دون أن يراها أحد.. تفتح خزينة البوسطة تسرق الخطابات الآتية من العراق وفلوس المعاشات. ثم تعود الأيادي كلها بيضاء كما كانت وتلتصق بجسد المرشح فلا يشعر بها أحد!

في هذه اللحظة بالضبط قلت لبلال إن كلمة «أيادي» غير صحيحة لأن ربنا خلق لكل إنسان يدين اثنتين فقط، حتى لو كان من نواب مجلس الشعب، وبلال بدوره اقترح تقديم طلب للحزب لتصحيح الجملة إلى:«انتخبوا صاحب اليدين البيضاوين»! بلال من الشخصيات التي لا تعرف مزاحها من جدها، ولا موتها من حياتها.

بعد ساعة من الآن، سنتوقف أمام مزلقان سكة حديد المنصورة وستكون هناك لافتة كهربائية عملاقة تتغير صورها لإعلانات عن مستشفى استثمارية: تبييض الأسنان، التخلص من الشعر الزائد، وداعاً للنظارة الطبية. وقبل أن يُفتح لنا المزلقان سيمر من أمامنا قطار أبيض. كانت المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها قطاراً مطلياً باللون الأبيض. كل من

كانوا معي في الأتوبيس استغربوا مثلي لون القطار!

صحيح أنني أعيش اللحظة نفسها والحدث نفسه، للمرة الرابعة أو الخامسة، لكن كان لدي شعور غامض بـأن بعض وجوه الشباب التي معي في الأتوبيس تغيرت ولا تشبه تلك الوجوه التي كانت معنا عندما عشت الموقف في المرة الأولى، باستثناء عم محمد خليل سائق الأتوبيس فهو كما هو.. حتى عندما مر القطار الأبيض حك شاربه الرفيع المحفوف وعلق بأن القطار الأبيض ليس للغلابة أمثالنا بل مخصص للسياح فقط لكنه مازال تحت التجريب!

قبل دخولنا مركز ميت غمر، سيهبط بلال ويتصل من هاتف في دكان بقالة بشخصية مهمة. وسيتكرر ذلك طوال الرحلة، لأنه كان يتلقى التعليمات أولاً بأول. ثم سيصعد بعدها ويبتسم لنا وهو يخبرنا أنه بعد أداء المهمة وأثناء العودة سيمر مندوب من مركز الشباب يوزع على كل من شارك عشرة جنيهات من غير إيصال استلام ولا إمضاء ولا أي شيء، مكافأة من مديرية الشباب والرياضة. ما عليك إلا أن تستلم الورقة أم مئذنة وتضعها في جيبك.. ما إن قال ذلك حتى صفق له الجميع وهللوا: «بالروح بالدم نفديك يا بلال»!

الموقف كله وقع مثلما حدث في المرة الأولى، والاستثناء

الوحيد أن المكافأة التي أعلن عنها بلال زادت إلى عشرين جنيهاً، أما وجبة النصف فرخة فظلت كما هي. وأيضاً صفق له الجميع وهللوا: «بالروح بالدم نفديك يا بلال»!

بلال محبوب فعلاً، ليس لخياله الواسع وشهيته المفتوحة على الطعام والنساء. بل لأنه لا يغلق بابه في وجه مريض أو محتاج، يذهب بهؤلاء إلى أكبر مسؤول في الحزب دون تردد. أقسم لي بحق صلاته لديه علامة صلاة في جبينه أكبر من علامة الصلاة التي في جبيني أنه لا يأخذ عمولة عن خدمة الناس كما يفعل بعض زملائه. ليس كل كلامه كذباً، فهو يستطيع بجسده الرياضي وصوته الجهوري أن يفتك بأي مسؤول لا يلبي طلباته، وفي النهاية طلبات الفلاحين تافهة مثل عيشتهم.

كنا على الطريق الزراعي ورغم طبقة الضباب الخفيفة رأينا أتوبيسات أخرى تحاذينا وتسبقنا و بها شباب يرتدون الـ «تيشيرتات» البيضاء نفسها، لكن ما استغربته حقاً ونحن نعيش الحدث للمرة الرابعة على ما أذكر، ظهور هذا القطيع الكبير من الحمير البيض تقوده عجوز بدوية بملابسها الحمراء المزركشة. كانت تعوق السير على الطريق بقطيعها ولا تبالي بالأتوبيسات السياحية التي تلاحقت وراء بعضها.

مع بطء سير الأتوبيسات تشاغلت بتصفح الجريدة، وهي الجريدة نفسها التي كانت توزع علينا مجاناً في كل المرات السابقة وكانت الأخبار متشابهة من عينة: مدير أمن الجيزة ينفي شائعة خطف صحفي كبير وتعذيبه ثم تركه عارياً في الصحراء، وكيل نيابة قصر النيل يخلي سبيل ضابط أمن دولة اتهم بضرب أحد القضاة بالحذاء أمام دار القضاء العالي، بعد تصالح الطرفين، ورئيس التحرير يدحض في عموده اليومي أن يكون مصرع القاضي الذي حكم بإعادة أرض «مدينتي» إلى الدولة، ينطوي على شبهة جنائية مؤكداً أنه مات في حادث سيارة قضاء وقدراً متهماً المعارضة بالصيد في الماء العكر، مع أن القاضي لقي مصرعه على طريق صحراوي ليس فيه ماء! أيضاً استوقفني خبر عن انتحار محاسب في العقد الرابع بعد هبوط أسهمه في البورصة لأنني قرأت الخبر نفسه قبل عامين وبالتفاصيل نفسها، وإشعال صاحب مطعم النار في نفسه أمام مبنى مجلس الشعب، ومرفق بالخبر صورة تقرير طبي يفيد بأنه مختل عقلياً وأهله تبرأوا منه.. أكثر ما لفت انتباهي في جريدة الحزب هذه التفاصيل الدقيقة عن عملية اغتصاب جماعي لفتاة معاقة في محطة الأتوبيس في العتبة كأن الصحفي كان مع المغتصبين، بالصوت والصورة!

استأنفنا السير، بعد انسحاب قطيع الحمير البيض من نهر الطريق.

لكن أعاقتنا عند مدخل إحدى القرى خناقة كبيرة، كان علينا أن نسير بهدوء بأتوبيسنا الأزرق السياحي وسط أجساد الفلاحين الحفاة وزوجاتهم وبناتهم ورائحة اللبن والروث المنبعثة منهم.

في هذه اللحظة بالضبط سيهبط بلال وبجسده الرياضي و«كارنيه» الحزب سوف يقنع الفلاحين بأنه ضابط شرطة ويحذرهم من تعطيل الأتوبيس الذاهب في مهمة وطنية. وسنسمعه بوضوح لأننا مع هبوطه فتحنا نوافذ الأتوبيس وأخرجنا رؤوسنا وهو يكرر بصوت مرتفع:

«فاهمين يا أوباش! مهمة.. وطنية»!

سوف يستغل هبوطه ويتصل مرة أخرى بالشخصية المهمة التي يتلقى منها التعليمات أولاً بأول. طبعاً لم يتوقف صياح النساء، والرجال كانوا يزعقون على بعضهم بعضاً. فجأة وأثناء اختراق الأتوبيس وسط الحشد ببطء شديد تفاجأنا بامرأة عفية كانت ترتدي جلباباً أسود وهي تدفع شاباً بقسوة في عمود الإنارة. كانت تدفعه والشاب مستسلم لها كأنه «زلعة مِشْ» ترجها بيديها. من بعيد لمحنا رجلاً عجوزاً يرتدي عباءة

بيضاء قادماً فوق فرس بيضاء نحو الخناقة. خطر في بالي أنه العمدة أو شيخ البلد.

أشجار السرو والكافور كانت تجري إلى الخلف بامتداد النهر. يفصل بينها أحياناً سور منيع من الغاب الذي انتشر بشراسة وحجب رؤية مياه النهر. على مداخل قرى كثيرة كنا نشاهد منحدراً واسعاً مبلطاً بصخور كبيرة كستها طبقة خضراء علقت بها الطحالب، وفوقها الفلاحات وبناتهن يغسلن الملابس والأواني في الماء الجاري. كن يرفعن أطراف الجلابيب إلى ما فوق الوركين فكانت سراويلهن الداخلية الملونة تظهر مع انحنائهن إلى الماء. أرداف ثقيلة مقلوبة باتجاه السماء، سيقان وسمانات بيضاء مدورة. كان المنظر مباغتاً تحت شمس الصباح، ويستحق أن نفتح نوافذ الأتوبيس ونهتف ونصفر لهن في مرح طفولي، وإحداهن رفعت رأسها نحونا وابتسمت وهي تلوح لنا.

رغم تكرار المشهد أمام أكثر من قرية تالية لكنه لم يفقد إثارته في كل مرة قمنا فيها بهذه المهمة. شمس الصباح والنهر والسيقان العفية. كنت منجذباً إلى السيدات لأن سيقانهن أكثر امتلاء وأيضاً لا يتصنعن الخجل مثل البنات الصغيرات، بل ينحنين كاشفات عن كل ما يملكن بتهتك وبلا استحياء.

طوال الطريق لم تفارق ذهني حكاية «الأيادي البيضاء» هذه ولا «السيقان البيضاء» المغسولة التي رأيتها تتلألأ مع أشعة شمس الصباح.. كانت الشمس ذهبية كبيرة، ارتفعت من وراء الأشجار. وكان هناك صف طويل من أشجار الصفصاف التي تنتشر على مسافات متساوية.

بين كل صفصافة وصفصافة كانت هناك فلاحة مكشوفة الوركين تنحني فوق صخرة، ومؤخرتها مقلوبة في اتجاهنا. لكنها لا تغسل الأواني وملابس عيالها، بل تلتقط بيضة كبيرة الحجم من قصعة في متناول يدها ثم تمررها من بين وركيها العاريتين وتدحرجها في النهر ببطء.

كلما قطعنا مسافة كانت تظهر لنا امرأة محنية تدحرج بيضاً في النهر، من بين وركيها.. هذا المشهد تحديداً ليس من المشاهد المنتظمة في كل المرات التي قمنا فيها بهذه الرحلة من قبل.

بعدما تجاوزنا كوبري بنها تغيرت المناظر مع ظهور مصانع وشركات وأسوار على مسافات متقاربة.

ستكون المفاجأة التي هي في الحقيقة ليست مفاجأة لأنها حدثت معنا أكثر من مرة، عندما يتلقى بلال آخر اتصال من الشخصية المهمة التي ستطالبه، بالعودة بالأتوبيسات الستة من حيث أتى.

في تلك اللحظة صعد بلال واجماً وأشار علينا بالصمت ثم ألقى بالخبر المفزع دفعة واحدة وقال إن إرهابيين اغتالوا الريس وتم تعيين وزير الدفاع بدلاً منه رئيساً للبلاد. على عكس ما توقعه بلال منا في مثل هذا الموقف المهيب، هلل بعضنا للخبر بشكل طفولي! ولا يبدو أن بلال كان منزعجاً بشدة لأنه اكتفى بالتحسيس على قطعة الشاش التي فوق رأسه.

وكما حدث في المرة الأولى بالضبط، بلال رفض التعليمات بالعودة من حيث أتينا، فليس هو من يتراجع عن مهمة وطنية مثل هذه. حتماً هناك فوضى وانفلات أمني، ولا نعلم ما هو تأثير ظهورنا على الناس ونحن نرتدي تي شيرتات عليها صورة الريس المقتول!

بلال كان واعياً للورطة، واتصل في الطريق بشخصية مهمة، غير الشخصية المهمة التي كان ينسق معها. ثم اتجه بنا فجأة إلى أحد مصانع الملابس في شبرا الخيمة، فاستبدلنا «التيشيرتات» التي عليها صورة الريس بأخرى عليها صورة أبي الهول.

كما تغير مسار الرحلة من الصالة المغطاة في استاد القاهرة إلى قاعة المؤتمرات في مدينة نصر للدواعي الأمنية.

بعدما دخلنا في صفوف منتظمة إلى القاعة مكثنا ساعتين لا نفعل أي شيء، بانتظار اكتمال الحشود، كما أخبرونا، وهكذا

ضاعت علينا صلاة الجمعة. وكانت ضاعت علينا في المرات السابقة أيضاً.

جلسنا داخل القاعة الكبيرة بأدب مفتعل. أمواج وكتل بشرية. الجميع يرتدي تيشيرتات بيضاء. رحتُ أتأمل أيادي المسؤولين الذين يحومون حولنا بابتسام وأدب. يتحركون بخطوات محسوبة هنا وهناك. أعرف أنهم مسؤولون كبار جداً لأنني أشاهدهم كثيراً في التلفزيون. لم يخطر على بالي أنني سأراهم في يوم من الأيام وجهاً لوجه ولا يفصلني عنهم سوى خطوة أو خطوتين. كانوا يختفون سريعاً ويتركون عطرهم عالقاً في الهواء. يتابعون من بعيد بطرف أعينهم تفاصيل الصورة الكلية. أحدهم كان محاطاً بجنود أمن مركزي في ملابس سوداء وأحذية طويلة تدق الأرض على وقع أغنية شادية التي ترن في أرجاء القاعة: «ادخلوها آمنين». لم أعرف إذا كان هذا المسؤول من ذوي «الأيادي البيضاء» أم لا. بالكاد من بين ثقوب الحائط البشري الأسود، لمحت رأسه الأصلع لامعاً في الضوء ومحاطاً بالجنود.

كل مسؤول مر علينا كان واجماً، ويختفي سريعاً. وكنت أتأمل يده فأجدها يداً عادية، سمينة وقصيرة مثله، أو مشعرة منفرة كأنها يد شمبانزي يلمع فيها خاتم ذهبي.

في الساعة الرابعة عصراً سمعنا جميعاً صوت المذيعة هناء السمري وهي معروفة بحماسها الوطني في كل ما يتعلق بالريس، راحت تزف إلينا البشرى بنجاة الريس من حادث الاغتيال الفظيع جداً، وعليه فإن وزير الدفاع عاد وزيراً للدفاع، وقالت إن ريسنا حبيب الملايين سيكون بيننا خلال ساعة فقط لنهنئه مع جموع طوائف الشعب والمواطنين الشرفاء بنجاته من الاغتيال وختمت كلامها بالقول:«سلمت لمصر يا ريس وسلمت لك مصر».

المشهد نفسه تكرر كما هو أربع أو خمس مرات بعد ذلك، وبالسيناريو نفسه نُبلغ فجأة بإلغاء المهمة قبل دخول حي شبرا لأن الريس تعرض للاغتيال في فرنسا ومرة في بورسعيد ومرة في مطار سيدي براني، وفوراً يعين وزير الدفاع رئيساً جديداً ثم يتضح أن الريس نجا وعاد بسلامة الله إلى أرض الوطن. وعندما جئنا لمبايعته بمناسبة فوز مصر ببطولة العالم في كرة اليد حدثت أيضاً محاولة اغتيال وظهر المذيع لامع الشعر مفيد فوزي بنبراته المسرحية وردد العبارة نفسها التي رددتها هناء السمري:«سلمت لمصر يا ريس وسلمت لك مصر».

أحد هؤلاء من ذوي الأيادي البيضاء المشعرة جاء نحو

مجموعتنا مهرولاً وطلب منا إخلاء المدرج فوراً. وعندما تدخل بلال لمعرفة السبب وهل هناك ترتيب أمني معين؟ أخبره وهو غاضب جداً أننا المجموعة الوحيدة التي طبعت صورة أبي الهول على التيشيرتات بدلاً من صورة الريس.

من الطبيعي أن ألوم «بلال» على حماقته لأننا بكل بساطة تركنا التيشيرتات التي عليها صور الريس في مصنع شبرا الخيمة! ولأنه كان لابد أن نتعلم مما حدث لنا في المرات السابقة عندما أخرجنا هذا المسؤول نفسه من هذه القاعة للسبب نفسه، وهو أننا طبعنا صورة أبي الهول بدل صورة الريس.

هبطنا على عجل من مخرج جانبي، لستُ متأكداً إذا ما كان الريس ظهر في المقصورة الرئيسية ولوح لدقائق أم لا، لكنني لاحظت أن كاميرات التلفزيون تحركت فجأة على روافع ضخمة لالتقاط صورة لهذا التأييد الحاشد بأجساد آلاف الشباب الذين بدوا كنمل أبيض يتراص في صفوف منتظمة تصنع دائرة باتساع القاعة. بالتأكيد كان الريس في هذه اللحظة يلوح لآلاف الشباب وإلا ما سبب هذا التصفيق المدوي والهتاف والصفير الذي كنا نسمعه من خلف ظهورنا ونحن نغادر؟! وكانت سماء القاعة مزينة بآلاف الكرات البيضاء

الصغيرة التي تتطاير هنا وهناك. أذكر أنه خلال المبايعة الثانية ونحن نغادر بسرعة ونهبط الدرج لمحت خلف الريس فيما يشبه النظرة الأخيرة البابا شنودة والشيخ طنطاوي شيخ الأزهر والشيخ الشعراوي والشيخ الغزالي.

مشاعر مختلطة من الخجل والارتباك والسعادة أن المهمة انتهت على خير. وطمأننا بلال أن الأعمال بالنيات وأضاف مازحاً: عموماً الريس لوح لنا وشكرنا قبل ما نخرج! طمأننا أيضاً على أن الاتفاق كما هو دون أي تغيير، وسيحصل كل فرد على عشرين جنيهاً كاملة لأننا لا نتحمل غلطة عدم وجود صورة الريس على صدورنا.

مع أذان العشاء عدنا إلى بيوتنا في القرى البعيدة التي أتينا منها. واعتبرته يوم عمل بأجر، غير الوجبة المجانية التي يشكر عليها الحاج حامد الصفطاوي، إضافة إلى أنني بعت أيضاً «التيشيرت» الأبيض الخالي من صورة الريس بعشرة جنيهات مع أنه قطن ناعم غزل المحلة أكثر من مرة. في المرة الأولى بعته بعد مساومة طويلة لشاب ساذج من قرية مجاورة اسمه علي، كان يجلس إلى جواري ويضحك كلما لمح إوزة تعرج بجوار الأتوبيس، كأنه لأول مرة يسافر خارج قريتهم! لم أره في مهام المبايعة سوى هذه المرة فقط، لكن أحد زملائه من قريته قال لي إن المليجي أمين الشرطة سقط عليه وهو

مع امرأته (امرأة المليجي) وضربه بسنجة في موضع حساس من جسده. وفي المرة التالية بعت أيضاً «التيشيرت» الأبيض الخالي من صورة الريس بعشرة جنيهات لشاب لا أتذكر اسمه. ولستُ متأكداً هل هو من الأموات الذين يعودون بانتظام لمبايعة الريس والمشاركة بنعم في استفتاءات الرئاسة، أم هو من الأحياء الذي يشاركون في مثل هذه المهام السرية بلا انتظام ولا قناعة حقيقية!

اتفقت مع بلال، كما حدث في المرات السابقة، أن نلتقي بعد ساعتين لأعزمه على بيرة بثمن «التيشيرت» في «غرزة أبو ربيع» لأنها عالية ولها سور يمنع عنا تطفل عيون المارة على عكس قهوة الحاج نشأت المكشوفة على الشارع الرئيسي. وأثناء جلوسي في غرزة أبو ربيع في انتظار بلال، مر عليّ «شوكت الحرامي» لا أعرف ماذا سرق بالضبط لكن هذا لقبه حتى بعد أن أصبح أمين التثقيف في الحزب وهتف ساخراً: «أنت لسه بتسكر لوحدك.. الله يرحم صاحبك أبو سنجة لا تؤثر»؟!(١)

١- للأمانة والتاريخ لم يصدر وزير الداخلية أي بيان يتعلق باغتيال بلال صاحبي بسنجة رغم أنه كان عضواً في الحزب الوطني مثله مثل الريس، صحيح هذا رئيس الحزب وذاك مجرد أمين الشباب في مركز كفر سعد، لكنهما في النهاية زميلان في الحزب نفسه، وبالعكس الريس هرب في كل محاولة اغتيال لكن بلال واجه السنجة ببسالة وصاح صيحته الخالدة: «إنها لا تؤثر»!.

الطَّوَّاف وسارق النحاس

اندفع الشيخ حسن وسط ثلاثين رجلاً يشاهدون مباراة الأهلي والإسماعيلي في قهوة الحاج نشأت المطلة على النهر. حجب بجسده أرجل اللاعبين التي تجري على الشاشة. في عينيه لمعة بريق غامض، وعلى شفتيه المرتجفتين زبد خفيف.

الحاج حامد الصفطاوي مد يده يزيحه برفق لكن الشيخ حسن زعق بصوته الأجش ومد سبابته في وجهه حتى كاد أن يخرم عينه:

«أنت اللي سرقت النحاس»!

في لمح البصر، بسط كفه التي تشبه المذراة وصفعه صفعة معتبرة حمرت صدغه، فتكهرب الجو في القهوة كلها.

الحاج حامد نظر مبهوتاً والشرر يطق في عينيه. لولا الأيادي التي اندفعت في لحظة واحدة ربما قتله بكعب زجاجة البيبسي الفارغة.

كل من كانوا في القهوة في هذه اللحظة التاريخية (على الأقل بالنسبة لقرويين سذج ليست لديهم أصلاً لحظات تاريخية) نسوا أحداث المباراة وقهقهوا في تواطؤ وهم يستعيدون ما حدث ويطالعون الحاج حامد ينصرف مرتبكاً

يتحسس خده المحمر ويدفع بيده أحد الكراسي أرضاً.

الحاج حامد خرج منفعلاً من القهوة المجاورة للمسجد الكبير واتجه حسب رواية بلال المليجي إلى دكان البقالة الرئيسي الذي يملكه في سُرة البلد. يتدحرج على الطريق بجسده القصير الضخم وكرشه المنتفخ تحت الجلباب مثل برميل الزيت. صوته سريع وحاد وهو يسلم سلاماً مبتوراً على من يقابله.

الشيخ حسن مشى في شوارع البلد مختالاً كالطاووس. خطواته قوية مندفعة. يرتفع لأعلى قليلاً كأنه يهم بالطيران. كان يرتدي على اللحم جلباباً رمادياً مهلهلاً.

خبر الصفعة المُعتبرة وصل إلى عيال الحاج حامد وصبيانه عن طريق نعيمة العمشة لما قابلتهم أمام سور المستشفى المطلي بالجير الأبيض. كانوا يطبعون على السور إعلانات عن أحدث مشاريع الحاج حامد الصفطاوي: محل أحذية وماكينة طحين وكوافير للسيدات.

الكنج (هذا اسم الشهرة) ابن الحاج حامد رمى فرشاة الدهان وأقسم بشرف نعيمة العمشة (رغم أن نعيمة آخر امرأة في القرية يمكن أن يكون لديها شرف) أقسم الكنج أن يمسح الأرض السبخة بالشيخ حسن، فمثل هذه الصفعة حتى ولو من

مخبول تضر بهيبة الحاج وسمعته كعضو في المجلس القروي والوحيد صاحب رخصة توزيع الشاي والسكر على الفلاحين ببطاقات التموين.

ولما انصرفت نعيمة العمشة، باغتهم الشيخ حسن الذي لا يفهم كلمة واحدة مما يكتبون على السور المطلي بالأبيض، لكن الجميع يعلم أنه يُستثار من انتهاك البياض.. تبدأ الحالة بنظرات زائغة واحمرار عينيه، وبعدها يهجم الشيخ حسن كالثور على من يلطخ البياض حتى لو كان الكنج ابن الحاج حامد. راح يلطشه بكفيه كيفما اتفق. أصابعه غليظة مثل أصابع الكفتة تُعلّم مباشرة على الوجه. ثم انحنى على الأرض يلتقط ما يصادفه من حجارة صغيرة يقذفه بها ويصيح:

«تعال يا ابن الكلب.. أنت اللي سرقت النحاس»!

صفعتان في يوم واحد. لمَن؟ للحاج حامد الصفطاوي نفسه ولابنه البكري الكنج! حدث تاريخي لن تنساه البلدة أبداً. ومِمّن؟! من الشيخ حسن الذي لا يعرف أحد أصله من فصله، ولا بلده التي يلعنها الحاج حامد صباح مساء!(خبر الصفعتين نقله أحد صبيان الحاج حامد إلى رفاعي الحلاق وأضاف عليه أن الشيخ حسن توعد «إيحه» الابن الثاني للحاج حامد بالصفعة الثالثة، لكن هذه الرواية لم يؤكدها أحد)

لما وصل الحاج حامد محمر الخد إلى دكان البقالة الرئيسي الذي يملكه في سُرة البلد، كان هناك عشرة زبائن في انتظاره ببطاقات التموين العرقانة في أيديهم. أحدهم تملقه قائلاً: مبروك الدوري للأهلي يا حاج! لكنه ما إن فتح الدكان حتى انشقت الأرض أمامه عن الشيخ حسن بلحيته الشهباء النافرة، وشاربه غير المشذب الذي يكاد أن يخفي شفتيه الرقيقتين. وجهه قمحي مستطيل قليلاً، ودائماً يبدو محمر الخدين. شعره الناعم الطويل يجعله أشبه بالغجر. نظر إليه بكبرياء وصاح:

«واد يا حامض»!

ابتسم الحاج ابتسامته الصفراء، كأنه لم يصفعه منذ ساعة! ثم نفحه أمام الزبائن قطعة بسبوسة مجاناً:

«كُل وادع لنا يا شيخ حسن».

بحلق فيه وصد يده بقطعة البسبوسة:

«أنت اللي سرقت النحاس»!

حسب شهادة فكري التمرجي فإن عيال الحاج حامد وصبيانه جمعوا علب الدهان والدلاء سريعاً وأعدوا للشيخ حسن كميناً في طريق عودته أمام بيت الحاج حامد نفسه، بأدواره الأربعة.(في هذا الوقت كان أعلى بيت في القرية كلها. بيت العمدة نفسه كان من ثلاثة أدوار فقط) رسم عيال الحاج

حامد وصبيانه خطاً محفوراً في التراب بعرض الشارع، فالجميع يعلم أن أكثر ما يضايق الشيخ حسن انتهاك البياض وأن يرسم له أحد خطاً يحدد خطوته أو يفكر في الاستيلاء على ما يملكه حتى لو كان علبة سردين فارغة يحتفظ بها في جيبه. كان هذا الخط كافياً كي تشتعل معركة غير متوقعة. شق الشيخ حسن جلبابه والزبد غطى شاربه وشفتيه وهو يصيح كالجمل الموتور، يومها حطم على الأقل زجاج ثلاث نوافذ قبل أن تخرج زوجة الحاج حامد الشابة غاضبة وهي تزعق. (كان الحاج حامد جلبها من ضواحي الجيزة قبل عامين، وفرض عليها نوم القيلولة حتى تسهر له بالليل، وهي اشتكت له مراراً أن «ضراطه» لن يفيدها في شيء إذا أراد أن تنجب له ابنه السابع).

راحت تلعن اليوم الذي رأت فيه وجه شيخ النحس هذا، وتلعن البلد التي رمته هنا. لكن لا الحاج حامد نفسه ولا زوجته ولا أولاده ولا صبيانه، يمكن أن يهزوا شعرة في شارب الشيخ حسن الذي قفز على رصيف الدار ثم فوق صدر الكنج وإيحه معاً:

«يا ابن الكلب أنت وهو.. أنتوا اللي سرقتوا النحاس»

بعد واقعة الصفعتين التاريخيتين نشرت نعيمة العمشة

أقوى إشاعة عرفتها القرية في آخر عشر سنوات، وقالت إن الشيخ حسن سيأتي يوم الجمعة بعد صلاة العشاء ويذبح الحاج حامد من رقبته في عتمة الليل. الناس طبعاً صدقت الإشاعة لأنه اختفى من أسبوعين. (أهل القرية كانوا متأثرين بفيلم «عنتر ولبلب» لكثرة ما شاهدوه على القناة الأولى، رغم أنهم جميعاً أجبن من أن يقتلوا صرصاراً! فآخر جريمة قتل وقعت في القرية قبل عشرين سنة لما خدرت انتصار بنت الخردواتي عشيقها عربجي الحنطور وذبحته بمطواة قرن غزال فوق سطح الوحدة الصحية ودفنته في برميل أسمنت والبوليس قبض عليها قبل سفرها للعراق بساعتين. لكن الناس يصدقون أية إشاعة، فتصديق الإشاعات لن يكلفهم شيئاً. ولا داعي للتفكير كيف سيأتي الشيخ حسن ويذبح الحاج حامد ليلاً وهو لا يظهر إلا نهاراً مهما كان الجو حاراً أو ممطراً؟!)

تندر زغلول الفوال على نعيمة العمشة: معقول الشيخ حسن يسن السكين من أسبوعين! ولما حاول أحد صبيان الحاج حامد نشر إشاعة مضادة بأن مأمور المركز قبض على الشيخ حسن لأنه أساء لأسياده وأرسله إلى مستشفى المجاذيب في العباسية، لم يصدقه أحد.

والناس في غيابه قالت عنه كل الكلام، قالوا إنه غريب

طوّاف.. «بلاد تحط وبلاد تشيل».. وكائناً من كان لو بحث عنه بإبرة لن يعثر عليه إلا حين يظهر وحده يعلو ويهبط كالموجة على الطريق.

وقالوا لما القمر يكتمل بدراً يصاب الشيخ حسن بلوثة غريبة.. يهرول في البلاد من أولها إلى آخرها. يشتم ويصيح صياح مجانين ثم يلقي بنفسه في النهر بكامل ملابسه.

الرفاعي الحلاق كما يحكون جمع أصحابه على المصطبة قدام دكانه وقال لهم إنه عارف سر الشيخ حسن وبلده الأصلية. وحكى لهم أنه كان في شبابه زين العاقلين، وكان يدرس في كلية الطب ويربي عشرين ملكة في «المنحل» على طرف غيط البرسيم في أرضهم. وفي يوم عند الغروب دخل أخوه الكبير المنحل، كتّفه وعلّقه فوق النخلة وتركه في برد طوبة سبع ليال.

طبعاً أصحاب الرفاعي سألوه عن السبب فقال لهم إنه كان يكره الشيخ حسن كره العمى، ودبر له موتة غريبة فوق النخلة ليستولي على ورثه، نحو عشرين فداناً بحرياً. ومن كثرة ما نظر الشيخ حسن للقمر وهو بدر التمام في عز الشتاء، أصابته لوثة البياض. وأفتى الرفاعي من عنده أن شقيقه الأكبر لو طلب منه ورثه بطريقة ودية كان الشيخ حسن تنازل عنه بطيب

خاطر. وسبحان الله بعد أذان الفجر لاح للشيخ حسن عجوز أسمر.. وجهه نور على نور. قام العجوز وفك قيده وأخذه خلفه على فرس. وفي بلد بعيدة جداً عن بلده قال له: انزل هنا. من يومها حسب حكاية الرفاعي الحلاق لأصحابه السبعة والشيخ حسن لا ينام إلا في الغيطان مثل ذئب البراري، وحده في الليل يستلقي على الأرض دون فراش أو غطاء تحت نخلة مثل تلك التي ربطه فوقها أخوه الأكبر.

ولما فات أسبوع بعد الأسبوعين زغلول الفوال سأل عزيزة العمشة: الشيخ حسن سن السكين.. ولا السكين جرحته؟!» لكن في اليوم نفسه ظهر الشيخ حسن حافياً كعادته، تحت شمس الضحى.. يدوس الحصى ولا ينظر لأسفل. لا يبالي إذا جرحت قدمه شأفة زجاجة مكسورة بل يندفع إلى الأمام مرتفعاً كأنه في رقصة صوفية. عيناه شاخصتان لا يلتفت يميناً و لا يساراً.

في سرعة البرق ذهب أحد صبيان الحاج حامد إليه في القهوة وأبلغه بخبر ظهور الشيخ حسن في البلد. الكنج وإيحه وزوجة الحاج حامد الشابة ملأوا البلد كلها بالإشاعات عن صفعة الشيخ حسن الرجل البركة، والتي كانت وجه الخير وقدم السعد عليهم، وقالوا إن الحاج حامد قرر أن يحج للسنة الرابعة على التوالي ويشكر ربنا قدام كعبته الشريفة، ونوى

بعد الحج أن يفرش الجامع الكبير كله بحصير بلاستيك درجة أولى.. وفوق البيعة ولأن الحاج عنده سرايا كبيرة في الجيزة، نوى يرشح نفسه في مجلس الشعب عن (صفط اللبن)

سار الشيخ حسن ونصف البلد خلفه، زغلول الفوال وعزيزة العمشة والرفاعي الحلاق وفكري التمرجي.. ولما وقف قدام القهوة وقفوا. من بعيد نادى عليه الحاج حامد.. على عكس توقعات الجميع.. تودد إليه وصالحه على سحلب ساخن غمرت رائحته القهوة كلها. طلب منه أن يسامحه لأنه سيحج بيت الله الحرام للمرة الرابعة، وعرض عليه أن يحج معه، فهز الشيخ حسن رأسه موافقاً. ثم ابتسم ابتسامته الغامضة الملتوية ولوح بيده فظن الحاج حامد أنه سيضربه كفاً أخرى، قفز إلى الوراء، لكن الشيخ حسن أعاد يده داخل جلبابه وابتسم.

الحاج حامد كان رائق المزاج. أجلسه بجواره كأنه شقيقه الأصغر الأبله. وكان صوت محمد قنديل عالياً في الراديو يغني «أبو سمرة السكرة»، وبعد أن شرب الاثنان السحلب الدافئ أخذه معه إلى الرفاعي الحلاق وأمره أن يهتم به ويشذب لحيته وشاربه ويقص أظفاره السوداء.

في دورة المياه الملحقة بالجامع الكبير حسب شهادة فكري التمرجي، أجبر الحاج حامد الشيخ حسن على أن يستحم

ويرتدي ملابس الإحرام:

«حلوة يا شيخ حسن؟!»

هز رأسه بطريقة غير مفهومة، وابتسم الابتسامة التي لا يغيرها أبداً. ابتسامة بلهاء لكن مع التمعن فيها تصبح مرعبة، وقد يقف شعر المرء إذا تأملها طويلاً. للمرة الأولى يرتدي رداء ناصع البياض، وتظهر أجزاء من جسمه المحمر المشعر أمام الآخرين.

كانا واقفين متجاورين في الساحة الواسعة بين الجامع الكبير والقهوة حيث تجمع تباعاً عشرات الحجاج الرجال حليقي الرؤوس والنساء الملفوفات في البياض وعائلاتهم جاءت من قرى وعزب مجاورة لوداعهم. ستة أتوبيسات سياحية كلها زرقاء تستعد للانطلاق وقد أضاءت الكشافات الأمامية مع دخول وقت الغروب. السائقون فتحوا الكاسيتات في اتفاق على نشيد أسماء الله الحسنى. كان الحجاج رغم صعودهم إلى مقاعدهم يناقشون المحاسب صاحب شركة السياحة في تفاصيل جوازات السفر والأختام والتأشيرات وتغيير الجنيه بالريال، وأحدهم سأل المحاسب عن حكم الاستمناء أثناء أداء المناسك.

اختفت الشمس تقريباً وراء مئذنة الجامع، والشيخ حسن

مازال واقفاً في رداء الإحرام بجوار الحاج حامد. تفوح منه رائحة الصابون ويبتسم للعيون التي تطالعه باستغراب من وراء زجاج الأتوبيس. لكن المحاسب لم يسمح له بالصعود إلى أي من الأتوبيسات الستة الموزعة على مسافات متقاربة في الساحة الترابية. (بالمناسبة المحاسب له أخ أكبر يعمل محاسباً أيضاً لكن في القاهرة، ونشروا خبره في الأهرام أنه انتحر بعد هبوط أسهمه في البورصة)

الحاج حامد تكلم مع المحاسب على جنب لتليين دماغه، حسب رواية عم أحمد الحدّاد، واقترح أن يأخذوه معهم ثم يتركوه في ميناء السويس أو سفاجة أو في أي داهية تأخذه. لكن المحاسب رفض بإصرار تحمل مسؤوليته وأغلق باب الأتوبيس في وجهه. فطاف الشيخ حسن حول الأتوبيسات وهي تنطلق من دونه على الإسفلت الرئيسي. كان يقذفها ومن فيها بالحجارة ويسب المحاسب والحاج «حامض»! ويصيح:

«تعال هنا يا ابن الكلب.. أنت اللي سرقت النحاس»!

حسب رواية عم أحمد الحدّاد شيخ الطريقة الرفاعية، فإن الأتوبيس الثاني الذي أقل الحاج حامد الصفطاوي أُعيد بركابه من ميناء السويس لوجود أخطاء في تأشيرات السفر. أما الحجاج الذين كانوا في الأتوبيسات الأخرى فأقسموا بقبر

النبي العدنان الذي زاروه بأنهم شاهدوا الشيخ حسن يطوف معهم حول الكعبة المشرفة مرتدياً ملابس الإحرام، وقد عاد شاباً وسيماً كالبدر في ليل التمام (٢)

٢ـ كُتاب وقراء الروايات عادة مولعون بهذه اللعبة التي تضفي عليهم مسحة إلـهية وثقة زائفة بقدرة الذات على رسم المصائر والتحكم في النهايات. لهذا السبب وضعت إضافات هامشية لرصد المصائر الروائية لأبطال قصة قصيرة:

بلال المليجي الذي كان واقفاً على ناصية الجامع الكبير أمام محل الخردواتي عندما رأى الحاج حامد يمر منفعلاً محمر الخدين. ظل يداوم لسنوات على الوقوف في هذا الموقع الاستراتيجي لمراقبة جماعة السكاسيك (يقصد الملتحين) كلما دخلوا إلى الجامع في أوقات الصلاة غير الرسمية. والبلد كلها تعرف أنه مخبر سري، ومازال يمارس مهامه حتى اليوم، رغم أن محل الخردواتي أصبح «كوافير قشطة للسيدات».

نعيمة العمشة التي أبلغت أولاد الحاج حامد وصبيانه بخبر صفعه صفعة معتبرة، هي واحدة من أساطير البلدة، لديها معين لا ينضب من القصص والإشاعات، فرقت بين فتحي وزوجته نفيسة بتهمة أنها وضعت له سماً في الأكل، ودفعت فراخ القط لركل أبيه أمام الجميع، وأخبرت زوجات لا حصر لهن عما يفعله أزواجهن في غيطان الذرة في عز الظهر.. وكالة أخبار وكاتمة أسرار وإن كانت في الحقيقة لا تكتم سراً. بكل أسف لقيت مصرعها بعد مشاركتها في هذه الحكاية بنحو خمس سنوات، حيث عثر عليها مغتصبة ومقتولة في المقابر القديمة. وكان حزن البلدة عليها بأخبارها وأشرارها عظيماً، لكن انتشار تلفزيون تليمصر في تلك الفترة أنساهم نعيمة وحكاياتها وإشاعاتها.

الكنج النجل الأكبر للحاج حامد والذي تلقى الصفعة الثانية بعد صفعة أبيه عند سور المستشفى لم يزر البلدة على الإطلاق منذ أن نقل والده نشاطه التجاري وعقاراته إلى القاهرة والجيزة والساحل الشمالي. ويقولون إن الكنج تزوج بنت لواء شرطة مشهور بتعذيب الإسلاميين.

إيحه النجل الثاني للحاج حامد والذي كان موعوداً بالصفعة الثالثة، فتح معرض العبقري للسيارات في شارع عباس العقاد في مدينة نصر، ويتردد على البلدة كل بضع سنوات لأخذ خادمة قاصر دون الخامسة عشرة وإعادة الخادمة القديمة إذا تخطت سن العشرين.

الرفاعي الحلاق الذي نسب لنفسه القصة الحقيقية للشيخ حسن، كان صاحب مهمة تاريخية في حلق شعر ولحى وشوارب أهل القرية من أيام العمدة بدير الكبير، وأكثر من ثلاثة أرباع أهل البلد ذكوراً وأناثاً مروا تحت مشرطه لتهذيب أعضائهم التناسلية بحسب الشرع. اعتاد سرقة حكايات وإشاعات نعيمة العمشة ونسبتها إلى نفسه كي يأكل بها أذن الزبون. كما نافس فكري التمرجي في

إعطاء الحقن في البيوت وإجراء عمليات بسيطة كالحجامة، إلى أن أصيب بغرغريتة سكر اقتضت بتر ساقيه فصنع له عم شحتة النجار (شخص ليس له أية أهمية تاريخية لذلك لم يُذكر في متن القصة) كرسياً خشبياً بأربع عجلات ومرتفع فوق رأس الزبون إلى أن وافق العمدة لصبيه فتلة على فتح دكانه الخاص واستكمال مسيرة الحلاقة.

زغلول الفوال الذي تحدى نعيمة العمشة في إمكانية ذبح الحاج حامد على يد الشيخ حسن، افتتح أول مطعم فول وطعمية في البلد وعلق فيه صورة شيخ الطريقة الشاذلية ثم أطلق لحيته شبه الحمراء، وهو من ابتدع في كل سنة فكرة تعليق يافطة خمسة أمتار فوق المطعم لتأييد الريس، وفي سنة من السنين علق يافطة يرشح فيها نفسه لرئاسة الجمهورية وفي ظرف ٢٤ ساعة دخلت البلدة لأول مرة في تاريخها ست بوكسات وعشرة ضباط وجيش عساكر وقبضوا عليه، وفي قسم المركز حلقوا لحيته الحمراء وأفهموه خطأه حسب ما قال وقالوا له إن كل اليافطات الحلوة التي علقها في السنين الماضية لا تشفع له أمام الغلطة الأخيرة. لكن بعد شهر رجع فتح المطعم وعلق يافطة مبايعة للريس إلى الأبد وزينها بلمبات ملونة تومض وتنطفئ.

فكري التمرجي الذي رأى بنفسه الكمين الذي أعده أولاد الحاج وصبيانه للشيخ حسن، يعود إليه الفضل في إرساء قواعد الطب في البلدة بكل فروعه من صيدلة وعلاج بالأعشاب وكيفية إعطاء الحقن في العضل والوريد والطهور الصحي للأولاد والبنات. لكن حقيبة أدواته الصحية ظلت على حالها العتيق إلى أن زودت الحكومة الوحدة الصحية بطاقم ممرضات حاصلات على دبلوم تمريض فدمرن سمعته نهائياً.

عم أحمد الحداد هو أول من بشّر برؤية الشيخ حسن يطوف حول الكعبة، وأول من أدخل الحياة الحديثة إلى البلدة، رغم أن الأجيال الجديدة لا تعرف قيمته، لكنه ألان الحديد ونفخ الكير وطوع النار، ومن دكانه البسيط خرجت اختراعات لا حصر لها مثل شعلة نحاسية تحت قفص حديدي للطبخ بدلاً من الكانون العتيق، ومواسير مياه نظيفة للحمام من حديد الزهر، وصناعة الفؤوس والمناجل والبوابات الحديدية وتصليح ماكينات الري. فالبلد لم يكن فيها أي جهاز كهربائي عدا راديو واحد في دوار العمدة، وبفضل عم أحمد اكتشف أهل البلد آلات وأجهزة كثيرة كان يشتريها من شربين قبل أن تحدث النقلة الكبرى مع العائدين من العراق والسعودية الذين فتحوا محلات تبيع ثلاجات وغسالات ومراوح وتلفزيونات ملونة بالتقسيط. وفي شيخوخته الطاعنة أصيب بالعمى وتولى في احتفال رسمي مهيب مشيخة الطريقة الرفاعية في البلد، بينما ظل دكانه مهجوراً حتى اليوم، تنبعث منه رائحة الفحم ودخان قديم.

الحاج حامد الصفطاوي أصبح عضواً في البرلمان لعدة دورات متتالية إلى أن أصابه الخرف والرعاش فتنازل عن مقعده لنجله الأكبر.

زوجة الحاج حامد التي لم تعد شابة بعد المعاناة لسنوات من ضراطه، تم ضبطها في وضع مخل مع سائق توك توك، فاكتفى الحاج بتطليقها والزواج عرفياً من الممرضة التي تخدمه بمكافأة مجزية.

أخيراً لم يُشاهد الشيخ حسن يطوف حول الكعبة مرة واحدة فقط، بل إن كل من كتب له الله الحج من أهل القرية في السنوات التالية كان يعود ويقسم بحجته التي مازالت معلقة بين السماء والأرض أنه رأى الشيخ حسن من بعيد وهو معلق بأستار الكعبة المشرفة.

تجشؤ

أرجله تمشي وراء خطواتك أينما ذهبت.

أرجله كثيرة تنتشر في كل مكان. أمام البورصة وفي ميدان طلعت حرب ومحطة ومبي وشارع علوبة ومترو أنفاق شبرا- الجيزة، وقهوة فرساي.

كائن سرّي لا اسم له ولا لون، يتسلل في كل مكان خلفك. اليوم فقط تعرضت لثلاثة مواقف لا علاقة بينها، الأرملة الشابة التي اصطدمت بك أثناء خروجك من مبنى البورصة، ثم سكرتير المدير الذي جاء إليك كي توقع على «لفت النظر» وأخيراً تلك الفتاة التي تشبه البطة والتي اقتحمت خلوتك الليلية في فندق حور محب وهي تبتسم ببلاهة وتسألك إن كنتَ فلاناً! حتى لو لم تكن فلاناً فهي تقدم لك عرضاً.

هذه المواقف وغيرها ليست صدفة. فهذا الكائن السري يعيد ترتيب الأشياء وتنسيقها بطريقة لم تفهمها، ولن تفهمها أبداً. كل تفاصيل حياتك موصولة بشرايينه وأعصابه، يعلم أنك تسكن في الطابق الثالث في شارع عباس العقاد في مدينة نصر فوق معرض سيارات العبقري، وكل ليلة تشرب أربع زجاجات بيرة ستيلا في فندق «حور محب». ولديك في صندوق الرسائل الواردة على موبايلك ٧٥ رسالة منها عشر

رسائل من امرأة واحدة.

كل الأشياء التي تضيع منك فجأة، هو وحده يعرف متى وأين وكيف ضاعت. لكنه لن يعيدها إليك حتى لو ركعت على ركبتيك. ولكي تنسى ما ضاع منك يرتب في دقائق هلاوس تليق بنقاشك الليلي الصاخب مع أصحابك على قهوة فرساي، وسط قرقعة أحجار الدومينو وكركرة الشيشة وحكايات عمن يلعبون بالبيضة والحجر.

كائن سرّي يعد عليك أنفاسك، يعرف فيمَ تفكر قبل أن تفكر فيه. مهما هززت رأسك أسفاً وضربت جبهتك العريضة أو حتى نفضت كتفيك في الهواء غير مبال بشيء. لن يطلعك على سر اخضرار مؤشر البورصة ولا كيف تنهار رغم كل توقعات الصعود.. المؤشر لعبة صغيرة بين أصابعه يحركها لأعلى وأسفل كما يحلو له ولا تملك إلا أن تبحلق بعينيك في فراغ وذهول ودهشة.

كل الملفات، كل الأسرار المخبوءة، يقرأ سطورها بعناية ثم يدبر لقاء بالصدفة بين راقصة وطبال، حظ ومحظوظ، محاسب وصولي مثلك وحوت كبير مثل الكنج ابن الحاج حامد الصفطاوي الذي يلعب في خمسين مليون جنيه ولا يريد منك سوى تغطية حسابه المكشوف في وقت الخطر من حساب أي عميل آخر. أليس هذا الحوت هو من ساعدك في الحصول على

شقة أربع غرف في شارع علوية في الهرم غير شقة عباس العقاد؟

هل تظن نفسك أنك تعرفه؟ هل تشعر أنك تكرهه؟! لقد دربك منذ زمن بعيد بمهارة فائقة كي تكون فأراً أليفاً مطيعاً تنافق وتقول:«الحياة مجاملة».. ترتشي وتقول:«عربون محبة»، ترضخ للظالم وتلعن القدر، تمسح جوخ لأنك «بسارية» صغيرة تريد أن تأكل «عيش» في سوق الحيتان.. كلها أوامره وتعليماته.. أوامره وتعليماته.. تنفذها بحماس حتى لا يمتص دمك ويتركك في حالك تسمن وتربي الكرش.. الكرش الذي بسببه رفضتك أربع بنات، إحداهن أغلقت الباب عنيفاً على طرف الجاكت الجديد وصاحت في وجهك:«أنت آخر رجل أفكر فيه يا مكرش يا معرش»!

عشت أربعين عاماً من عمرك طبقاً للزيف والكذب والادعاء.. تساعد أقاربك في البلدة البعيدة ليس لأنهم يستحقون ولا لرغبتك في فعل الخير بل لإصرارك المقيت أن تتباهى عليهم. تستر خواءك أمام أعينهم بكرافتة حمراء مقلمة وبدلة زفرة وشعرك اللامع المصفوف بعناية.. فجوة مرعبة بين ما تفعله وما تدعيه عن نفسك، وأبداً لا تنظر في تلك الفجوة اللعينة. لا تريد أن تدرك أنها تزداد يوماً بعد يوم.. تمارس أيامك بكل الكذب الممكن والبلاهة السعيدة، رسائلك كلها لأشخاص خطأ،

رهانك كله على قاتل كي يمد لك يد السلام ويعطيك وردة حب.

رهانك على كائن سري يدحرجك بين أرجله الكثيفة المتنافرة وأنت في أسفل سافلين مثل سهمك الخائب الذي تراهن عليه.. لا تعرف.. ولا تريد أن تعرف من يمتطي ظهرك ولا أين يذهب بك؟!

في العتمة الشريرة، وراء الحيتان والبسارية، الوجوه والرغبات الصفراء، يتحفز بعينين واسعتين ميتتين. له ألف وجه وألف ذراع وألف قلب.. يتوارى في عتمة شاسعة رهيبة، يتنكر بألوان الطيف كلها لكنه في اللحظة المناسبة يتململ فيحرك هؤلاء وأولئك لمعادلاتك أنت فقط أو قطع رزقك إذا لزم الأمر، دون أن يسمح لك أن تعرف سبباً مقنعاً، فجأة يشيح الزملاء بوجوههم عنك لأن هذا العنيد القوي اعتصر أحاسيسهم وجعلها تسيل في اتجاه معين. تماماً كما قرأ رسالتك إلى زميلتك في بداية تعيينك وشم كلمات الحب بين سطورها، فقرر لها أن تستجيب لنزوتك مرتين قبل أن تتغير وتقول لك باقتضاب إنها «امرأة متزوجة.. حتى وإن كانت تعيسة»!

يحبك خيوط الألغاز لصالحك وضدك.. خيوط لا أول لها ولا آخر يتلاعب بها بين أصابعه فيفوز محاسب أهطل بمنصب كبير، بينما تستبعد أنتَ فجأة من متابعة ملف اقتصادي حساس لأنهم عثروا أمس أثناء الصيانة على كليبات بورنو

على جهازك مع أن كل أجهزة زملائك ملغومة بمثل هذه الكليبات. حتى لو عثروا عليها لن يسمح لهم بفضح أ حد سواك!

هذا كله يطابق انهيار البورصة فجأة فلا يخسر سوى البسارية من أمثالك، أو ارتفا ع الأسعار برغم الإعلان عن عدم ارتفاعها. وهكذا خسرتَ في البورصة مائة ألف جنيه ومثلها بسبب ارتفا ع الأسعار. ربما يريد أن يُعلمك كيف تقبل مزيداً من الخسارة دون أن تلعن زمن الـ «....» الذي نحيا فيه!

تدرك بفطنتك وحسك العملي أن وراء كل هذه المصائب والحظوظ كائناً لا يقدر عليه أحد.. كائناً متوحشاً لن يسمح لك سوى بالتهام خمسة جنيهات زيادة على سهمك الذي هبط في أسفل السافلين. إنها فرصتك كي تبيع. أجواء السوق أصبحت معقدة للغاية، لا تعرف من يلعب لحساب من، ومن يلعب على من، ليس أمامك سوى أن تنتهز فرصة الربح حتى لو كان ضئيلاً، ففي النهاية كل برغوث يلسع على قد حجمه.

لا علاج لا نهاية لا أمل..الكون كله مشدود إلى مفاصل هذا الكائن القوي العنيد المرعب المعتم الغامض..عندما يريد منك شيئاً يطبطب عليك يحدثك عن الصداقة والزمالة والأخوة والمحبة والجيرة.. يقول لك: أنت ابن بلدي، زميل الكفاح، أخو العيش والملح.. و.. وحين يقضي حاجته.. حين تصدق نعومته القاتلة يتبول في فمك ويمسح كل ما قاله. يغلق الهاتف في

وجهك فتقف مع نفسك متخيلاً صورته الوحشية التي باغتتك. ليس سوى أنياب المصلحة تبرز وتشتد حسب الحاجة والضرورة.

حرك أصابعك لأعلى تجاهه.. نعم إنه هو.. هذا الكائن العملاق المولود في العتمة يبرق بعينيه ويسخر منك .. اسمع.. ضحكته الشيطانية فوقك تحتك على يمينك على يسارك.. تمزق وجودك كله.. أنيابه ملوثة بلحمك ودمك ولحم الملايين غيرك.. لا يراه أحد أبداً، لا يقدر أحد على مواجهته.

يطلي عورته بكل الألوان الزاهية.. إذا ربت على ظهرك فاستعد لخازوق منه.. لا يزهق منك أبداً، يطلبك في النوم واليقظة، يسخرك لمتعه الغامضة، تشقى وتكد في أعمال لا ترضى عنها، ثم تصرف ما ربحته على عاهرتين عانسين تشققت أقدامهما من اللف بين شارع الهرم وجامعة الدول العربية. تتورط في كلام السوء عن غيرك حتى يرضى عنك، تجمع نقوداً وتسلمها له عن طيب خاطر، يشاطرك كل ربحك، تتركه يخطط لك رغباتك وأحلامك ومواقفك المعلنة والسرية. أنت كلك تحت عينيه ولا تدري! يكشفك لآخرين تعرفهم وآخرين لا تعرفهم.

بماذا خرجت من تصفح كل الصفحات الاقتصادية وملاحقة مؤشرات البورصة؟ إنه لم يترك لك ثغرة تنفذ منها وتنقذ «برستيجك» بين زملائك وأسرتك. جرائد تعلم جيداً

أنها لا تقول الحقيقة لكنك تشتري ثلاثاً منها بانتظام. مخبر سري قتل خطاطاً شاباً في غُرزة بإحدى القرى ثم زعموا أنه إرهابي قُتل في مواجهة مع الشرطة! صفحة كاملة في جريدة المعارضة عن «كيف تشكل الراقصات الحكومات؟!» كل ما شغل تفكيرك كيف تعثر على عاهرة منهن كي تفتح لك طاقة القدر وتدلك على سكة الحيتان الخفية. البورصة التي تفني عمرك فيها هي أيضاً «هز وسط» لكن بأعصاب مشدودة أكثر.

صديقك الطبيب «ريَّش» من بيع مرضاه الفقراء قطع غيار، وأنت تبيع أحلامهم قطع غيار. ألم تغر ثلاثين رجلاً وامرأة بوضع أموالهم في البورصة كي تحقق لهم أرباحاً تصل إلى ١٢٠٪ ثم تقاسمت الأرباح مع محام نابه أزرق وأعدت لهم أصول أموالهم بالتقسيط المريح؟!

لماذا تغني كل الصحف اللحن نفسه؟ لأن الكائن السري يمسك عصا المايسترو للجميع؟ لماذا تغلق الأبواب جميعاً مرة واحدة في وجهك في البورصة.. في مكتب المحاسبة بعد الظهر.. وحتى في ديوان المحافظة صباحاً؟ لأن هذا اللعين الجبار يشعر أنك لا تقدم له ما يكفي من فروض الولاء والطاعة.. لقد أشّر بطرف عينه فأطاعه حراس الأبواب وأغلقوها على أصابع يديك الممدودتين برشوة تافهة مثل ضحكتك المصطنعة. لماذا تشعر أن كل الكلاب تعوي فجأة في وجهك؟ ليس لأنك شيطان

رجيم بل لأنه عقرها بإبره المسمومة الممزوجة بالعسل.. فعوت.. ضدك.. بدلاً من أن تعوي ضده!

امسك ذيله، فقط ذيله.. حاول أن تستقصي في عمرك كله جريمة واحدة له، كاغتصاب فتاة معاقة في محطة الأتوبيس، مقتل قاض في حادث سيارة قضاء و... قدراً.. كيف بدأ التحقيق.. كيف انتهى إلى لا شيء؟! إنه فوق.. فوق القانون.. فوق العقاب.. مهما تحدثت عنه سراً وجهراً.. اكتب ضده المنشورات كما في أفلام الأبيض والأسود.. اقرأ الروايات التي تحكي عنه.. اللوحات التي تتخيل شره وتاريخه الأسود.. تعوذ منه في سرك وصلاتك.. استنجد بكل القديسين والأولياء الصالحين.. تبرع بكل ما جنيت من أموال في لعبة البورصة.. لا فائدة!

ظهره طويل لا أول له ولا آخر. صلب عنيد، هلامي لزج.. لا يسمح لأحد أبداً أن يعرف من أين يبدأ ولا كيف ينتهي. لا ينام ولا يستريح، يلوك يرغي يزبد يصرخ يهمس يجعر يخور يفور ينتشر يتقوقع يلين يسيل يتحجر يزأر يشحب يلمع يعتم يتوهج يتوحش يتذأب يتأخطب يتوغل يتضخم يتغلغل يتمدد بحجم السماء والأرض.

لست وحدك.. الجميع عالق في الشرك.. كالعشبة تعلق بالظفر والحبة بالمنقار.. الجميع يطير يترنح.. يرتفع يهبط..

لكن الشرك منصوب إلى الأبد. كل ما يخطر على بالك لن ينقذك من لعق دمك بلسانه وأنيابه وأظفاره وقرون استشعاره. ما أنت إلا نسيلة لحم عالقة بين أنيابه. كل الفتحات محسوبة مرصودة بعناية..هذه تسمح لك بأن تتنفس.. تلك خصصت لك لتناول وجبات كنتاكي على استعجال في مطعم قرب مبنى البورصة.. هناك فتحة تنفذ منها ليلاً لكباريهات شارع الهرم وأخرى تتسرب منها أحلامك القديمة في أن تصبح محامياً وأباً لثلاثة أطفال، تعيش معهم آمناً على ساحل البحر. وحين يفلت آخر حلم من أعماق روحك.. حينها سيطبق عليك بأرجله وأجنحته ويطقطق عظامك.. يشبع منك ثم يذروك ريحاً نتنة في فمه وهو يتجشأك في عتمته الأبدية. (٣)

٣- نشرت صحيفة الحوادث في عددها الصادر في ٢٦ يونيو ٢٠٠٩ تفاصيل مثيرة حول انتحار المحاسب «س.س» المولود في قرية كفر سعد البلد والقاطن في شقة فاخرة في شارع عباس العقاد في مدينة نصر ، حيث نفت مصادر في مستشفى الرحمة بشارع مكة أن يكون مات مسموماً ورجحت أنه انتحر بابتلاع كمية كبيرة من حبوب منع تسوس القمح، بعد خسارة معظم أمواله في البورصة. ولكن المثير للدهشة أن بطن المحاسب كانت منتفخة بصورة مأساوية حتى كادت أن تبلغ السقف واضطر فريق من الأطباء إلى شق بطنه وإمعائه حيث تم إخراج كمية هائلة من الفضلات وعثر من ضمنها على: موبايل سامسونج، فلاش ميموري ٤ جيجا، ربع جنيه مخروم، عظمة ورك دجاجة من ماكدونالدز، مفتاح شقة، شريط كاسيت، تذكرة سينما، ورقة بها أرقام هواتف عشر سيدات، في حالة يرثى لها، حجر دومينو جهار اليك، علبة معسل تفاح، كرافتة حمراء، صورة سيدة في الأربعين من عمرها ، نصف صفحة من جريدة الأهرام، في حالة يرثى لها (لا ذنب لي في تكرار الجملة)، مجلة بلاي بوي عدد حديث، ناب حيوان مفترس، وردة بلدي مجففة، شيك من مجموعة حامد الصفطاوي وأولاده لحامله، ريشة، مفتاح سيارة، شريط سبازمو أمريز لعلاج الغازات والانتفاخ واضطرابات المعدة، ونسخة من كتيب بعنوان «وصايا الرسول».

النحلة الخشبية

«مثل ثور معصوب العينين

بين عدد كبير من المصابيح» ماركيز

إذا رأى أحدكم ثلاثة كتب ملفوفة في جريدة وفوقها جراب نظارة مضلع، فهذه أشياء «س» يضعها على الكرسي المجاور له بينما ينصت في احترام وقد عقد ذراعيه معكوستين على صدره.

إذا طالت الندوة عن وقتها المفترض وهي ستطول وسمع أحدكم غطيطاً خفيفاً يشبه قأقأة الدجاج، فهذا غطيط «س» حيث انثنى رأسه قليلاً وأصبح معلقاً في الهواء بين الكرسي والأرض. علامة أكيدة على أن الندوة ليس فيها جديد، مجرد كلام معاد عن مدرسة فرانكفورت وما بعد الحداثة والتفكيكية.

«س» أول من أتى في الموعد بالضبط. قرأ الخبر منشوراً في الأهرام على عمود صغير أسفل صفحة «دنيا الثقافة»، فركب سيارته الفيات الصغيرة من أمام شقته في ساقية مكي إلى مكان الندوة في أحد فنادق الزمالك.

لا تلوموا «س» لأنه كان اتخذ قراراً سابقاً باعتزال الندوات، فهو لم يجد شيئاً آخر يفعله. لا زوجة.. لا أولاد.. وأية ندوة حتى لو كانت عن أدورنو وجاك دريدا أكثر إثارة من الزواج! عدا أن من يبلغ الخمسين يكمل بقية حياته لا شعورياً حسبما تعود.

المكان أنيق فعلاً، على غير عادة الندوات الثقافية التي تقام في أماكن تراكم فيها التراب منذ عقود! ما شاء الله قاعة فسيحة وبوفيه شاي ونسكافيه وجاتوه، رائحة مسكرة لذيذة! وصورة بالحجم الطبيعي للزعيم مصطفى كامل، في إطار مذهب، تغطي قبح العمود البارز بين جدارين. كان من الأفضل أن يضعوا صورة لنجيب محفوظ! هكذا فكر «س». هناك أيضاً على الجدار المقابل لوحتان زيتيتان، إحداهما لسرب من عصافير الجنة وهي تحمل في مناقيرها بيضاً صغيراً، وأخرى لوجه عجوز أسمر في ملابس بيضاء يشبه أنتوني كوين في فيلم «عمر المختار»، ربما يكون الجد الأكبر لصاحب الفندق من أصول ليبية.

تشاغل «س»، إلى أن يحين موعد الندوة، بتصفح بضعة كتب اشتراها للتو. كانت طريقته مميزة في تصفح الكتاب من الشمال إلى اليمين، يطالع أولاً النبذة المدونة على ظهر الغلاف، ثم الفهرس، ويمرر عينيه سريعاً على المقدمة إن وُجدت.

كانت الندوة على شكل طاولة مستديرة يتحلق حولها الجمهور القليل. وما إن اكتمل عدد الحضور على الكراسي، حتى راحت الكراسي تدور بهم خفيفاً حول الطاولة، مثلما يحدث في لعبة الأحصنة الخشبة في ملاهي الأطفال، فالأحصنة تكون معلقة في الهواء، مشدودة إلى حبال من حديد، وفي الوقت نفسه تدور مع دوران محور ارتكاز اللعبة.

استغرب «س» أن تكون الطاولة المستديرة.. دوّارة بهذا الشكل! حتماً هناك آخرون استغربوا مثله لكن أحداً لم يتكلم أو يعترض. جميعهم استرخى واستسلم لحركة الدوران البطيء جداً، بانتظار وصول المتحدث الرئيسي.

الدوران يكاد لا يُحس، لكن صورة الزعيم مصطفى كامل أحياناً يراها «س» تحدق في وجهه مباشرة وأحياناً تطالع قفاه. حدّث نفسه بأن مصطفى كامل في إطاره الذهبي لم يعد يملك أي حق في الاعتراض مثلما كان يفعل في ريعان شبابه. وهذا الدوران الخفيف الرتيب يجعل إيقاع الندوة أقرب إلى جلسة حميمة في منزل العائلة. لعلها حيلة ذكية من مصمم القاعة حتى لا يشعر أحد بالملل، فالندوات التقليدية مجرد كلام معقد و«لوكيشن» ثابت ووجوه محدقة في الفراغ! الميزة الأهم لهذا الدوران أن الشاعرة المعروفة فاطمة الصفطاوي

أصبحت إلى جواره بطريقة ما ليس إلى جواره تماماً. حيث كان بينهما مقعدان شاغران، أحدهما عليه ثلاثة كتب ملفوفة في جريدة وفوقها جراب نظارة مضلع، والمقعد الآخر عليه حقيبة نسائية سوداء ماركة سان إيف لوران، وفوقها علبة سجائر مارلبورو لايت. طبعاً هذه أشياء «س» وتلك أشياء فاطمة الصفطاوي التي كانت صديقة طفولته في قرية بعيدة على النيل، لكن والدها غادر دمياط بعدما أصبح تاجر أعلاف وحبوب مشهور جداً في الجيزة وضواحيها.

بخفة ظله المعهودة، روى حكاية كان قد رواها من قبل عشرات المرات لها ولآخرين: كيف ذهب لأول مرة إلى ندوة ثقافية.. وكيف ركب مترو الميرغني ثم سار على قدميه تحت المطر الغزير مسافة لا بأس بها حتى وصل إلى مقهى «أم كلثوم» وفي مقابلها مقر حزب التجمع الذي تقام فيه الندوة.

كان متوجساً من مسألة «حزب التجمع» هذه، لقناعته أن الندوات الثقافية يجب أن ترتفع على الحزبية والطائفية والتجمعات. هو في النهاية يبذل جهداً تطوعياً و لا يريد أن يجازى بأية مشكلة أمنية. لذلك في الطريق إلى الندوة لم يسأل عن مقر حزب التجمع بل كان سؤاله المتكرر: «لو سمحت يا

باشا.. قهوة أم كلثوم فين؟»

فاطمة الصفطاوي التي تُكن له معزة خاصة بسبب ذكرى الأيام القديمة، وظفت كل براعتها كي توهمه أن حكايته جديدة ومسلية. كلما اقتربت منه وأصغت، كان يتشمم على مهل رائحة عطرها الباريسي المختلفة عن روائح المثقفين التي هي مزيج من العرق والتراب والصوف والقهوة ودخان السجائر. كانت تضع ساقاً على ساق، فرحة بشبابها الذي لم يغادرها تماماً، تهز رأسها له وتبتسم دون أن تنطق بكلمة واحدة.

أخرج من محفظته صورة ملونة متآكلة الحواف. سبق أن أخرج لها الصورة نفسها من قبل ثلاث مرات على الأقل. كل من يظهرون في الصورة كانوا نائمين أو عيونهم نصف مغلقة كالأموات. أشار لها بسبابته إلى الجزء الذي يظهر منه: هذا أنفي.. وهذه عيني اليسرى، أجريت فيها عملية المياه البيضاء من أسبوعين فقط. ثم أشار إليها وهي تقف بعيداً وتحمل قطتها الشيرازي البيضاء بين يديها. ذكرها أنها كانت ترفض الجلوس بسبب قذارة المقاعد. كانت أصغر سناً وجمالها كان مازال طازجاً. وكعادتها دائماً لم تكن تحضر الندوات الثقافية إلا وقطتها الشيرازي في حضنها. في صدارة الصورة يجلس هناك رجل مثل فيل أبيض يميل إلى الصلع وله لحية مثل

لحية لينين. قال لها إن قطتها كانت مرعوبة من نظرات هذا الفيل الأبيض، ثم ذكر لها اسمه، فهزت ليلى الصطفاوي رأسها بمعنى أنها لا تعرفه أو لا تريد أن تتذكر ابن الـ .... هذا!

أخيراً وصل المتحدث الرئيسي د.عبده صبحي وعلى رأسه طاقية تشبه طاقية تشرشل في اجتماع يالطا. وبصحبته جمهور قليل انضم إلى الندوة. ثم ظهر وسط الداخلين مصور جريدة الأخبار الذي يتبادل معه «س» في العادة سيجارة أو سيجارتين حسب الظروف، وهو يشتكي له في كل مرة لأن صوره لا تنشر بالطريقة اللائقة التي تستحقها، ثم يترحم على أيام مصطفى أمين وأيام مصطفى كامل. طبعاً مصطفى الأول لا علاقة له بمصطفى الثاني لكن مصور «الأخبار» هاوي «أفيهات» مثل سائر المخلصين للندوات الثقافية.

حلقة الندوة واصلت الدوران. يعلم «س» أن أية ندوة تكون مرتبة بشكل معين لا يُستحسن أن يُفسده أحد. فهناك مثقفون يحجمون مثلاً عن الجلوس في الصف الأول من باب التواضع. وغالباً يترك كل مثقف الكرسي المجاور له خالياً كي يتمتع بقدر من الخصوصية، إلا إذا جاءت امرأة فإنه يرحب بها على الفور ولتذهب الخصوصية إلى الجحيم!

أما هذه الندوة فهي متحركة مثل بكرة الشريط السينمائي، تدور وتدور، فتتغير الصور والمناظر ما يجعله يشعر بدوخة

خفيفة أو انخفاض في الضغط. صورة مصطفى كامل بدت كأنها هي التي تدور حول أركان القاعة الأربعة. أحس «س» بالزعيم يتململ في الصورة، وطربوشه الراسخ يتأرجح فوق رأسه، باستثناء شاربه المعقوف لأعلى ظل ثابتاً كما هو. قد يكون هناك زر سري عالق في إطار الصورة يوقف دوران الطاولة لكن لا أحد ينتبه له. ثم لماذا يعترض هو تحديداً، فالجميع راضون بالوضع ويتقبلونه بهدوء مثل قساوسة المذبح؟!

كان «س» غير مرتاح لكلام د.عبده صبحي. هو مثله حنطي البشرة لكنه يميل إلى القصر، جبينه منخفض، وبؤبؤا عينيه متقاربان بصورة تجعلهما يبدوان كالملتصقين خصوصاً أنه يفرهما بسرعة في أكثر من اتجاه بطريقة تضحك «س» الذي يكتفي بابتسامة ماكرة وإمالة نظره إلى أصابع فاطمة الصفطاوي البضة وهي تمسك السيجارة في لا مبالاة. كان طلاء أظافرها الطويلة دموياً، لامعاً ومثيراً، وكانت تهز ساقها العلوية كأنها بندول ساعة واقفة. وللحظة تخيل أنه رأى أربع نسخ من ساقها المهتزة.. أربعة أطياف لساق عارية بيضاء تتأرجح لأعلى وأسفل!

مصور جريدة الأخبار «أبو جوني»، هو الآخر، يدور بقامته القصيرة في زوايا القاعة الأربع، يقترب.. يبتعد، وهو

يحاول أن يلتقط أكثر من صورة من زوايا مختلفة. كان «س» مطمئناً وواثقاً من ظهوره في مقدمة الصورة هذه المرة، ليس لأنه يتبادل سيجارة أو سيجارتين مع «أبو جوني»، بل لأنه محظوظ بجلوس كاتبة جميلة ومشهورة بالقرب منه. حتماً سيظهر معها في الكادر مثل صديق حميم وليس وسط زحام الوجوه في خلفية الصورة.

أية ندوة محترمة تفقد الكثير من مصداقيتها لو لم يظهر فيها جزء من رأس «س» على الأقل. فهذه الصورة هي التي تؤكد أن الندوة حدث حقيقي وجدير بالنشر في الصحف مثل سقوط أتوبيس النقل العام في النيل أو تصدع عقار في الدرب الأحمر.

وإذا رأى أحدكم امرأة في الخمسين من عمرها تشبه ملك الجمل في فيلم «الشموع السوداء»، فهذه هي الروائية «انتصار»، ستترك الكراسي الخالية كافة وتلتصق بالشاعرة فاطمة الصفطاوي التي ستتجاهلها بإمالة كتفها قليلاً، إمالة عفوية بحجم الغيرة النسائية المعتادة. فيضطر «س» تأدباً إلى رفع كتبه وجراب نظارته ووضعهما على ركبتيه.

«انتصار» هذه امرأة مطلقة وغير مريحة؛ رغم امتلائها الشهواني. وهي قد تتخلى عن دفاعها المستميت عن القضية

الفلسطينية ولا تتخلى عن عطر الياسمين الذي تستحم به على الأرجح. بين كل كلمة وأخرى تردد: «جزاكم الله خيراً» وهي عبارة لا تتسق في رأي «س» مع دفاعها المستميت عن «النسوية» وإن كانت متسقة مع فردة القفاز التي ترتديها في يدها اليمنى خصيصاً لمصافحة الرجال. امرأة غريبة الأطوار حقاً تستعير طبقة صوتها من أفلام ديزني لاند.

مثل معظم المتحدثين في الندوات يحصل د.صبحي على وقت مضاعف لما اتُفق عليه. لذلك لم يصفق له «س»، بعدما استيقظ من غفوة قصيرة، إلا من باب الذوق خصوصاً حين لمح أيادي الآخرين ترتفع في حركة منظمة وتصفق. بالطبع كانت الأكف تتداخل مع الدوران الخفيف الآتي من أسفل الطاولة.

التصفيق لن يمنعه من أن يبدي اعتراضاً كتمه في صدره طويلاً. لم يكن متأكداً منذ متى وهذا الجار الصامت الودود يجلس إلى يساره.. كأنه سفير سابق! كانت سلسلة ساعته الفضية تتدلى من صديري البدلة الصوف، و شاربه كان محفوفاً بعناية فائقة لا تنفلت منه شعرة واحدة. وغليونه ظل عالقاً بين شفتيه الشاحبتين، لا يهتز ولا يتأرجح.. مهما يكن، فإن الحيز الحميم يفرض نوعاً من التواطؤ، والثرثرة الجانبية، لذلك همس في أذن جاره: «د.عبده ندوات» يخلط بين أفكار

أدورنو وجاك دريدا مع أن هذا ألماني وذاك فرنساوي! فحياه السفير برفع غليونه ثم عاد إلى وضعه المحنط كما كان.

كان «س» يرتدي قميصاً أبيض نصف كم وبنطلون جينز باهتاً. ألوانه المفضلة كلها تدور في فلك الأزرق والأبيض. متواضع جداً في هذه المسألة، ثم إن الندوة في رأيه هي فعل ثقافي جاد وليست حفل زفاف. لكنه في هذه المرة بالذات، حضر بعد أن تخلى عن نظارته السميكة بإطارها الأسود القبيح، واستبدلها بنظارة جديدة دون إطارات.. على الموضة.. توقع أن يهنئه أحد على النظارة الجديدة بدلاً من القديمة التي كانت عبئاً ثقيلاً على أرنبة أنفه.. لكن أحداً لم ينتبه للثورة التي أجراها في وجهه. وما حز في خاطره أن الكاتبة فاطمة الصفطاوي نفسها تطلعت في وجهه مرتين، كلما دارت بهم الكراسي، دون أن تعلق أو حتى تبتسم كعادتها!

لذلك اتخذ قراراً في سره أن تكون هذه الندوة هي الندوة الأخيرة له. القرار نفسه كان قد اتخذه من قبل مرتين أو ثلاث. لكنه هذه المرة أكثر إصراراً بعدما تأكد أن الناس يلتقون لسنوات وسنوات ويدعون أنهم أصدقاء وهم في حقيقة الأمر لا يعرفون أبسط الأشياء عن بعضهم بعضاً.

«س» في أوائل الخمسينيات تقريباً، خرج على معاش مبكر،

متوسط الطول، ممتلئ قليلاً، لا يحلق لحيته الكثة سوى مرة أو مرتين في الأسبوع. هيئته تُوحي بفحولة خام لم يستنفدها صاحبها. وفي آخر لفة للطاولة رأى إلى يساره بدلاً من جاره السفير الصامت، الشاعر «ج» الذي أشاد في مرات سابقة بفحولة «س» ولامه لأنه لا يستثمرها بالطريقة المناسبة. هذه الإشادة المبهمة تحديداً، هي ما جعلته يرتاب في ميول «ج» الجنسية. رغم أنه تطوع مراراً بتوصيله بسيارته الفيات إلى أماكن غريبة في دهاليز القاهرة. لكنها زمالة ندوات أكثر من كونها صداقة حقيقية. كان تقريباً يكفّر عن ارتيابه في ميول «ج»، فهو نفسه عانى في بداية ظهوره في الوسط الثقافي من جنون الارتياب المعتاد في عيون الأدباء والمثقفين. حتى لو كان «ج» بغرابة أطواره شاذاً جنسياً فهذا أمر شخصي لا يعنيه.

كما توقع، ما أن أصبح «ج» ملتصقاً به حتى سأله هامساً عن رأيه في ديوانين له. كان قد أهداهما له قبل شهرين في صالون جمعية «الجاحظين».

«ج» هذا شاب بوهيمي حقاً ولا ينام في شقة واحدة يومين متتاليين، يكتب ما يسمى في هذه الأيام «قصيدة النثر»، وجاء كي يسأله الآن عن رأيه! فماذا يقول «س» عن دواوين شعر توزع مجاناً بلا مقدمة لشاعر كبير ولا نُبذ على الغلاف؟! لن

يخبره طبعاً أنه أهداهما لفتاتين التقى بهما صدفة في كوفي شوب «الغزال الأبيض» في جامعة الدول العربية زاعماً أنها كتب في فك السحر.

فاطمة الصفطاوي، ربما بحكم أنها حاصلة على جائزة الشعر الأولى، ووالدها رجل ثري مشهور، حافظت على مكانها في الصدارة، رغم أن حركة الدوران لم تكن منضبطة تماماً وأدت إلى فوضى خفيفة في ترتيب الكراسي وهذا أمر لم يفهمه «س» على الإطلاق لكن دون أن يؤثر ذلك بتاتاً على مركزية المتحدث الرئيسي.

لا تبدو فاطمة عابئة بتلك اللفات المتتالية، فهي إنسانة مثقفة ومتجاوزة وليست من هؤلاء الناس الذين يتشبثون بالكراسي. لكنها لا تتوقف عن التدخين جالسة أو واقفة. مرة تنفث دخانها بحدة ونزق في وجه من يقابلها مباشرة ومرة أخرى باسترخاء وشرود.. تترك الطاولة وتتمشى حولهم والعيون كلها تتطلع إلى استدارة ردفيها الثقيلين. كانت متوترة، توقع على السيراميك بكعبها العالي وهي تدخن بعصبية وفي يدها «ماج» شاي عليه رسمة توم وجيري.

وقع الكعب العالي ظل يرن في أذني «س» ثم انتبه إلى طرقات كعوب عالية أخرى دخلت حالاً وغزت القاعة. خمس أو

ست نادلات فلبينيات انتشرن بين جمهور الندوة. كن يرتدين «تي شيرتات» قطنية بيضاء مطبوع عليها بخط رقعة أزرق «Coffee Egypt» وصورة أبو الهول، وسراويل جينز ممزقة وقصيرة جداً. سيقانهن العارية الممشوقة تدور وتدور حول الطاولة حتى كاد أن يصطدم بصدر إحداهن وهي تصب له فنجان القهوة بأدب الجواري.

الزحام، مزيج الروائح الحلوة، الدوران، طرقات الكعوب العالية الحادة، رنين ضحكات د.عبده ندوات، ابتعاد واقتراب صورة مصطفى كامل، حركة «أبو جوني» مصور الأخبار وهو يقفز حول الطاولة، دخان سجائر فاطمة الصفطاوي المارلبورو اللايت، بحلقة «ج» الشاذ في عينيه، شخير السفير المنغم، الثرثرة الجانبية، جملة «جزاكم الله خيراً» مازالت ترددها انتصار لشخص لا يراه.. دوار.. دوار خفيف مدوخ.. القاعة كلها ليس فيها شيء محدد ثابت، ربما كل الأشياء ثابتة وهو الذي يدور. زاد الأمر سوءاً شعوره بأن العيون كلها مصوبة نحوه وهو يجفف العرق بمنديله القماش. سقط الجراب المضلع من على ركبتيه، وهو يلتقطه سقطت لفة الكتب. صورة مصطفى كامل تبعد إلى آخر أفق الرؤية.. تنحنح «س» وهو غير مستعد للنحنحة.. ضربات قلبه تبدو غير منتظمة، وهو يجاهد

كي يتعلق وعيه بصوت د.عبده صبحي المشروخ والمألوف.

«على أية حال هذه هي الندوة الأخيرة» كرر على نفسه هذه الجملة عدة مرات وهو يتحاشى نظرات «ج» المصوبة عليه من بعيد. هذا الفرفور لا يرى في أي رجل يلتقيه إلا «.....» استغفر الله! كأنه محاصر، عار في مواجهة فضول العيون. حاول تركيز بصره على شفتي د. صبحي الذي استأنف الندوة وهو يخلع طاقية تشرشل فبانت صلعته أخيراً. صلعة لامعة ومربكة مثل مفاجأة غير سارة. الندوة الأخيرة ندوة المفاجآت! ظن أن د.عبده صبحي ينادي عليه ويعلن تكريمه لأنه حقق رقماً قياسياً في عدد مرات الحضور للندوات الثقافية، لكنه في الحقيقة كان يلقي نكتة بذيئة.. نعم نكتة بذيئة تشبه صلعته.

شفتا د.عبده تنتصبان. تطولان إلى أن تصيرا مثل زلومة الفيل. الروائية «انتصار» التي تتحدث دائماً عن النسوية وتردد «جزاكم الله خيراً» رآها تقف وتهز له صدرها وهي بالسوتيان الوردي فقط.. السوتيان صغير جداً لا يناسب حجم ثدييها المستهلكين والفائضين على حوافه. امرأة غريبة الأطوار حقاً لا تراعي سنها و«وزنها»! تبتسم وتخرج له لسانها المزرق وهي تشير بإبهام يدها المضمومة نحو الشاعر «ج» ثم تضرب بحماس إصبعي السبابة في بعضهما. فهم «س» الإشارة:

الشاعرة «انتصار» ستتزوج الشاعر «ج».. نعم «انتصار» ستتزوج «ج».. ظل يرددها في سره «انتصار.. جزاكم الله خيراً» ستتزوج «ج.. الشاذ»! «ج .. الشاذ» سيتزوج «انتصار.. جزاكم الله خيراً».. من يجلسون قي القاعة يقهقهون.. هل سمعوني؟.. لماذا يسخرون مني؟ ملامحهم تبتعد، تقترب.. تبهت شيئاً فشيئاً.. كلهم نسخ مكررة منه، السحن غير الحليقة، اللون القمحي، الأنف الأفطس، والنظارة الجديدة التي بلا إطارات. جميعهم كانوا يضعون على الكرسي المجاور ثلاثة كتب ملفوفة في جريدة فوقها جراب نظارة مضلع، وفوق رؤوسهم جميعاً طاقية مثل طاقية تشرشل في اجتماع يالطا.. طاقية تشرشل تتمايل يمينا ويساراً وهم يرددون وراءه مثل كورال في تخت شرقي:«انتصار.. جزاكم الله خيراً» ستتزوج «ج.. الشاذ».

وراء البياض

الرجل موجود. أو كما يقولون: حي يُرزق. ولديه بطاقة رقم قومي مطبوع عليها ببنط أسود:

«محمد خليل عبد العال طنطاوي»

وإن كان اسم العائلة «طنطاوي» باهتاً قليلاً. اختفى نصفه تحت حافة ختم الدولة الأزرق. والده الحاج خليل عبد العال لم يتزوج أمه إلا على كبر، وبعدها ضيع محل العصير الذي ورثه عن أبيه على غازية موالد.

اتخذ عم محمد هكذا ينادونه في الحارة من غرفة الصالون الصغيرة خلوته المفضلة، يترك كراسيها المغطاة بكسوة رخيصة من القماش المشجر ويجلس على الأرض بالساعات. ضوء الشمس شحيح بالكاد يعكسه زجاج النافذة. يتأمل صورة أبيه وصورة أمه المعلقتين في إطارين كانا مذهبين قبل أن يصبحا هكذا بلا لون.

وجه أبيه الأسمر قاس في صمته وشروده، يحيطه شال أبيض ولحية خفيفة. أمه كعادتها تربط رأسها بإيشارب أسود على طريقة العجائز، وعلى ذقنها وشم أخضر. عاشت طول عمرها حزينة من أمر مبهم لم تخبر به أحداً لكنه ظل حاضراً

على ملامحها المقطبة ونظرتها العنيدة.

يظل هكذا: جالساً على الأرض وقد ثنى رجليه تحت مؤخرته. ينتظر اللحظة التي سيخرج فيها أبوه من الصورة ويواسيه. أو تربت أمه على قلبه بأصابعها التي اسودت من رص الشيشة لأبيه الشره لمعسل الحناوي.

ثلاث ساعات لم تكن كافية كي يتشجع أبوه ويتنحنح ولو بكلمة!

«٣٥ شارع حسني الشرابية القاهرة»

هذا عنوانه الرسمي أباً عن جد، دون أي ذكر لمحل العصير الذي كان يملكه جده على الناصية المقابلة للبيت. دأب على تجنب النظر إلى المحل المفتوح ٢٤ ساعة. كانت سلال المانجو والبرتقال المتدلية على مدخله تفوح رائحتها وتصل إلى أنفه وإن لم ينظر إليها.

شقته في الطابق الرابع، وهو يلهث بما فيه الكفاية حتى يصعد إليها. بعد الغداء بساعتين، هبط لمتابعة مباراة الأهلي والإسماعيلي على قهوة الحاج نشأت. في الهبوط كما في الصعود كان يتحاشى النظر إلى سلال المانجو والبرتقال وسباطة الموز الدانية من رؤوس الزبائن.

على القهوة التقى أصحابه الثلاثة، ثم انتابه للمرة الأولى شعور غامض بأنه غير موجود وإن لم يفقد تماماً الوعي بالأشياء حوله.. اسمه لا يدل على جسمه ولا جسمه يدل على روحه. كان يسمع حوله طنيناً.. دوياً.. رنيناً قاسياً.. كأن روحه انخطفت منه. مهما كان للموت من رعشة مقبضة، فهو مستعد له. في النهاية سوف يستخرجون له شهادة وفاة مدون فيها أربعة أو خمسة أسماء، يمثلون آباءه وأجداده. وهو مختبئ في كفن البياض قد يسمع أصحابه الثلاثة وعم شحاتة المخبر يتحدثون عنه.. آخر كلام سيصله من الدنيا الفانية:

«الله يرحمه.. طول عمره رجل طيب وفي حاله».

«رجل مثل النسمة كأنه غير موجود»!

يدخنون السجائر وهم يخرجون به لآخر مرة من ٣٥ شارع حسني. لن يتفهموا الرغبة الأخيرة لكهل محمول على الأعناق كي يُلقي نظرة على محل العصير المفتوح على الناصية المقابلة ويشم رائحة المانجو لآخر مرة!.

«موظف في الجامعة»

في الثامنة والنصف صباحاً يكون جالساً، وراء مكتب خشبي عتيق، كان ينسى سيجارة الكليوباترا مشتعلة في يده

اليسرى. طبيب مستشفى الجامعة حذره:

«أنت مش بتقرا اللي مكتوب على علبة السجاير يا عم محمد؟»

«إيه اللي مكتوب يعني يا دكتور؟»

«التدخين ضار جداً بالصحة»

«آه.. افتكرتهم كتبوا حاجة جديدة»

لن يتطلع من النافذة المفتوحة خلفه، ويراقب برج ساعة الجامعة إلا حين يتأرجح جرسها العتيق مع دقة مدوية تعلن الواحدة ظهراً. هوايته المفضلة المشي من باب الجامعة الرئيسي إلى ميدان الجيزة لتحسين التنفس وتوفير أجرة الأتوبيس.. كان الهواء رمادياً خانقاً. لا يتمنى سوى أن يسمع صوت أم كلثوم تغني.. لا يرد على باله أغنية معينة.. المهم أن يمشي بمحاذاة صوت أم كلثوم.

«ذكر»

منذ فترة طويلة توقف عن التفكير في كونه ذكراً. أيضاً زوجته بدورها توقفت عن الغمز واللمز بشأن هذه المسألة. لكنها مازالت مثبتة هكذا ببساطة في البطاقة القومية:«ذكر»!

كلما جلس معها على الكنبة لمشاهدة فيلم من الأفلام

التافهة تخزه نظراتها والطريقة التي تمصمص بها شفتيها. امرأة غريبة عنه لا علاقة لها بالفتاة المنكسرة التي رآها في الأرياف قبل ثلاثين سنة!

يتركها ويدخل غرفة الصالون. يُلقي التحية على صورة أبيه ثم على صورة أمه. يحرك الصورتين برفق كأنه يقربهما أكثر من بعضهما بعضاً. سمع صوت أمه تبتسم وتنادي عليه:«إزيك يا محمد .. لو كنت تعبت تعال».

«مسلم»

واضح من اسمه محمد خليل عبد العال طنطاوي أنه ليس بوذياً، ولا كافراً والعياذ بالله! يؤدي الصلوات الخمس في البيت، وصلاة الجمعة في مسجد الرحمة التابع لجمعية أنصار السنة. الحياة كلها لا تساوي أن يعصر عظامه ثعبان أقرع في القبر. بعد الصلاة يلتقط السجادة المطبوع عليها صورة الكعبة والمسجد الحرام، يعيدها مطوية إلى مكانها المعتاد على مسند الكرسي في الصالون.

الناس كلهم في الحارة يرددون:

«عم محمد خليل رجل بركة.. طيب وفي حاله»

لا يريد أن يذكره أحد أصلاً في خير ولا في شر. هناك مليون شخص آخر يقال عنهم الكلام نفسه، إنهم «طيبون» و«بركة»

و«في حالهم». لن يحدث شيء إذا أصبحوا مليوناً إلا واحد!

لو غاب عن الحارة أسبوعين لن يتذكره إلا عم شحاتة المخبر. سيأتي ويجلس على القهوة ويسأل عنه أصدقاءه الثلاثة، بطريقة عفوية، كأنه لا يتقصى عامداً سر غيابه.

هم يعرفونه حق المعرفة ويضحكون من فرضية أن يكون قد أطلق لحيته والتحق بالأخوة المجاهدين في العراق أو في باكستان. سيذكّرهم عم شحاتة بأبيه الذي مسّه الخفيف على الكِبر وانضم إلى مجاذيب السيدة.. أصدقاؤه سيؤكدون له الجملة اللعينة نفسها التي تطارده كلما ذكر اسمه: «لا..لا يا رجل.. محمد خليل رجل في حاله لا مع المجاهدين ولا مع غير المجاهدين».

«متزوج»

لا ينسى ليلة سفره مع أبيه، الدرويش العجوز، في قطار طنطا، كان ذلك مساء يوم جمعة، بعد ما السادات رجع من القدس، في عز المطر والبرد ووحل الطريق. خلال سبعة أيام لا أكثر، كان قد تزوج بنت خاله الكبير ثم عاد بها إلى الطابق الرابع في ٣٥ شارع حسني في حي الشرابية. لكن ليس في البطاقة القومية الجديدة ما يشير إلى ثلاث بنات في رقبته، أصبحن في سن الزواج.

قضى وقتاً مع بناته المسترخيات على الكنبة في انتظار القسمة والنصيب. زوجته فردت ساقيها المربربتين على حصيرة بلاستيك تغطي أرضية الصالة، وبين ساقيها وضعت حلة المحشي. كانت مشغولة بلف ورق الكرنب المسلوق وحشوه بخلطة الأرز المتبلة.

بناته هبة ومنة ونعمة يثرثرن عن موضة «اللو ويست» وموسم التنزيلات في العتبة وأغنية تامر حسني «أبقى نفسي.. آه» التي يشغلها صاحب محل العصير مع أغانٍ أخرى سخيفة تخرق أذنيه في الدور الرابع. .. محشي الكرنب واللو ويست وتامر حسني، كأنه غريب عن هذا الكلام.. عن هذا العالم كله!

هو نفسه يغلق قلبه على كلمات كثيرة لا يبوح بها لبناته الثلاث ولا لأم البنات.. حتى لو انطبقت السماء على الأرض.

أغلق على نفسه باب خلوته المفضلة. أغمض عينيه واسترخى كالعادة على الأرض، رأسه شبه الأصلع بالكاد يلامس من الخلف حافة النافذة المغلقة. عبد الحليم يغني في الصالة «نار يا حبيبي نار». سمع زوجته تصرخ على البنات من المطبخ:

«وطوا التلفزيون أبوكم تعبان شوية».

الصورة

بياناته كلها على وجهي بطاقته القومية.

صورة الأهرامات وأبو الهول، بلونها البني الفاتح. على اليسار صورة صغيرة جداً له بشاربه الرفيع المحفوف. كان يبحلق مذهولاً كمن خرج للتو من السجن. منكمش الكتفين، ولا يظهر من الجاكت الكحلي الذي يرتديه سوى الياقة.

صورة صغيرة جداً في بطاقة ممغنطة. أنف مفلطح وعينان غائرتان لا يرى بهما جيداً دون النظارة السميكة التي كان قد خلعها لزوم الصورة الرسمية. تقريباً له ملامح أبيه نفسها، باستثناء اللحية الخفيفة واستطالة الوجه.

تلصصت عليه زوجته من ثقب الباب وقد ارتدى بدلة الفرح السوداء التي يحتفظ بها في الدولاب، فظنت أنه معزوم على فرح ابن أحد زملائه. الإضاءة كانت مصفرة ومغبشة.. رفع صورة أبيه عن الحائط وحملها لأعلى بعناية رغم رجفة ذراعيه المشعرتين، ثم أعادها في مكانها. رفع صورة أمه.

سمعت زوجته سعاله العنيف لآخر مرة كأنه يصدر عن شخص آخر وليس عن زوجها الذي يشخر إلى جوارها منذ ثلاثين سنة.

كان وجهه يقترب من وجه أمه وهو يدخل رأسه في إطار الصورة. استمر في دفع جسده كله داخل الإطار. جسده كان يخف كالريشة يوشك أن يختفي فلا يعثر عليه أي مخلوق. رأى ممراً طويلاً أبيض. هناك أخذ نفساً عميقاً وتمدد في ساحة واسعة من البياض ثم أغلق الباب وراءه.

الخروج إلى الشمس

الى ابتسام تريسي وعبد الرحمن حلاق

على السرير المجاور بلال يصرخ وهو نائم. يضرب بقدميه حافة السرير، ثم يطعن بهما الفراغ لأعلى، كأنه سيهدم السقف علينا.

يعاود دفع رجليه الطويلتين المتصلبتين معاً بسرعة وقوة وسط صراخ يشبه خوار حيوان جريح.

بلال تزوج ثلاث مرات من سورية ومصرية وكويتية. ويقول إنه يرى نفسه أثناء النوم ميتاً موتاً حقيقياً ولا يعرف كيف يعود إلى الحياة! لاشيء يبدد غضبه المكتوم إلا تلك الكائنات الخفية التي تجتاح جسده ليلاً وتخنق روحه.

كابوس بلال على بعد خطوة واحدة من سريري. هو يتعذب وأنا أستيقظ في عمق الليل على صراخه. ضوء الصالة الشحيح يتسرب من زجاج الباب العلوي، فأرى رجليه متصلبتين لأعلى كأن يداً خفية تسحبهما سحباً نحو السقف وهو يتملص منها. يصرخ بعنف ويتملص بجسده الهائل فتعاود اليد الخفية سحبه لأعلى.

أتفرج بعينين شبه نائمتين على هذه المعركة الليلية، ولا أفكر أن أوقظه بل أتركه يصرخ و يواصل الكابوس كاملاً حتى تبلغ صرخته مداها وتتحرر من صدره مثل طائر تعذب في القفص طويلاً. لعله يرتاح حين تنطلق الصرخة بآخر حشرجة في الصوت. مريح للإنسان أن يصرخ أحياناً مثل حيوان.

....

في الصباح، أقف مستسلماً تحت مياه «الدش»، أتأمل من وراء زجاج النافذة الصغيرة، الحمامة البيضاء التي سكنت «منور» البناية وهي تتلفت حواليها ولا تراني من وراء الزجاج. أتفاءل بوجودها الحي. لماذا الوجوه التي أعرفها تبدو لي في تلك اللحظة بعيدة كحلم مستحيل أو وهم لا معنى له.. أبي، أمي، جدي، وجدتي أم السعد.. وجوه كأنني لم ألمسها، لم أتكلم معها في يوم من الأيام؟! لم أعد أهتم بأحد ولا أحد يهتم بي. طريقة خفية للانسحاب من الحياة، تمرين بسيط على الرغبة في الموت.

لا فرح، لا نشوة، لا أمل حقيقي في شيء. الكليبات الخليعة التي لا أمل من مشاهدتها بالساعات لا تحقق لي أية بهجة بكل مساحات العري والرقص والإيقاع الشهواني وكتل اللحم المعروضة للفرجة. برغم الاستيقاظ والاستحمام، أشعر أنني

مازلت نائماً، أحتاج إلى شهوة عنيفة، رغبة مجنونة. شيطان يتحرك في داخلي يطلب مني أن أحرق كل أوراقي القديمة قبل أن أهبط سريعاً إلى زحام الشارع. أجري في لا مكان.. في لا مكان.. ولا أعود إلى هنا مرة أخرى. أركب قطاراً أبيض ينطلق بسرعة الضوء في غابة من ضباب. أمضي إلى مكان آخر لا أعرفه.

....

«أبو جوني» عجوز سوري يوصلني مقابل مبلغ شهري، ذهاباً وإياباً إلى الشركة التي أعمل بها في ميناء الشويخ، ثم يذهب إلى عمله الأساسي في تنجيد الكراسي واختيار ستائر مناسبة لحيطان البيوت. منذ نصف ساعة كان يدق على الهاتف وينتظرني أسفل البناية بسيارة تصنيع ماليزي عليها علامة تشبه الشمس. اجتهدت أن أعرف ماركتها وسألته عنها أكثر من مرة، لكنني دائماً أنسى. ثم فجأة فقدت الاهتمام بمعرفة الماركة.

لا أستطيع أن أهبط إليه إلا بعد أن أستحم وأشرب كوب شاي بالحليب مع البسكويت، أثناء ذلك أشاهد أي كليب تافه يعرض في الصباح. أمسح الحذاء بخرقة بالية. رنين هاتفي يتواصل، مقلداً طريقته الشامية أهتف: الدنيا طارت«.....» أختك.. يلعن

عرضك! رجل طيب «أبو جوني» لن يسمعني وأنا أسيه!

«أبو جوني» سيستغل الوقت والانتظار في أكل سندوتش أو قطعة كنافة بالجبن مثل طفل خجول تجاوز الستين، ثم يشعل سيجارة ويضبط مؤشر الراديو على نشرة الأخبار في راديو «سوا». أتصوره قضى عمره كله في الشارع هنا دون أن يغضب من أحد. أخبرني خمسين مرة أنه جاء من الشام قبل خمسين عاماً لجمع خمسمائة ليرة يفتح بها محل حلاقة في دمشق!

....

«صباح الخير يا أبو جوني»

ألمح حبيبات العرق على صلعته تلمع في الشمس. سيصدقني حين أعتذر له عن التأخير حتى دون أن أبرر له. يعيد ضبط المنديل الأبيض على ياقة قميصه.

ونحن في السيارة أسمع معه آخر الأخبار، هي نفسها آخر الأخبار التي سمعناها صباح أمس، مع تعديل طفيف. لكنها على كل حال توحي لنا أن اليوم ليس الأمس. طبعاً هي أخف من الأخبار الشريرة عن القتلى والجرحى في حصاد قناة الجزيرة التي أتابعها قبل النوم، أمس فقط كان هناك تقرير مأساوي عن انقلاب أتوبيس سياحي في مصر يقل عشرات الشباب في

طريق عودتهم بعد مبايعة الريس. في هذا الزمن، سبع ساعات مدة كافية لإشعال حرب نووية أو غرق عبارة على متنها أكثر من ألف ضحية. جورج بوش الابن لا يحتاج أكثر من خمس دقائق كي يرتكب وأنا نائم حماقة جديدة تشغل العالم بأسره. الزمن أصبح ضئيلاً جداً على حجم الكوارث الممكنة.

شخص مثلي أدمن الفرجة على الكليبات التافهة، والمصائب، أصبح يجد فيها إثارة كونية، فهي تدل على إمكانية الخلاص في ثوانٍ من وضع مترد وهش لكنه استمر طويلاً أكثر مما يجب. قنبلة نووية بحجم مناسب ستعيد صياغة الكون كله.

لستُ منزعجاً من شيء بعينه لكنني أجد صعوبة في النزول كل صباح إلى الشارع، في الذهاب كل يوم إلى العمل، في الاكتفاء كل يوم بنظرات شهوانية إلى مؤخرة انتصار زميلتي بدلاً من أن أهجم عليها وأضغطها في الجدار حتى تستسلم. إلى متى أراود النساء من وراء «فاترينة» دون أن يحق لي اللمس؟ إلى متى الاستمرار كل يوم في الروتين نفسه؟!

....

أتأهب للعودة إلى بناية العزاب، إلى روائح العفونة والصراصير والرطوبة والضجيج. يرن الهاتف فتضيء الشاشة

الزرقاء وأرى اسم «أبو جوني». أقبض على حقيبتي مغادراً.

«مساء الخير يا أبو جوني»

لا أتذكر بماذا رد، لكنه معسول اللسان فلا تستطيع أن تعرف هل يرد التحية أم يغازلك؟! يتكلم طيلة الطريق الذي يستغرق ثلث ساعة وأنا لا أستمع لأي شيء مما يقوله، إلا إذا تحدث عن الزوجة المتصابية التي راودته في غياب زوجها المغفل، أو الأرملة اللعوب وبناتها الثلاث اللواتي يستأجرن شقة خاصة للمزاج في شارع بغداد في السالمية. في إحدى المرات حكى لي عن زيارته الوحيدة إلى القاهرة وكيف التقط فتاتين عانسين من شارع جامعة الدول العربية، كانتا مستعدتين للزواج منه والسفر معه إلى الكويت.

أفكر في أشياء كثيرة وأجتهد كي أحصر تفكيري في اتجاه معين. كل كلامه عن الزبائن المزعجين الذين يأكلون حقه ولا يعطونه أجره نظير تركيبه الستائر ومفروشات هذه الديوانية في كيفان أو ذاك القصر في الأحمدي. لا أعرف بدقة عما يحكي ولا سبب الخلاف في السعر رغم الاتفاق عليه قبل التنفيذ! أنا واثق أنها هي الحكاية نفسها عن هؤلاء الناس البخلاء الذين يساومونه على الفلس. أهز رأسي ولا أعرف لماذا أبتسم مع أن كلامه حزين. أخي أسعد محاسب في الدمام وكان يروي لي

هو وزوجته المُدرّسة حكايات مشابهة. أحياناً أتحمس وأرد على أبو جوني: «وليه تسكت؟ خد حقك منهم.. الحرامية ولاد الكلب».

جملة غبية، أنا نفسي غير مقتنع بها.. لكن لابد أن أتكلم وأقول شيئاً له، لو كان يستطيع أن يأخذ حقه لما حكى لي أصلاً!

....

على السرير المجاور بلال يصرخ وهو نائم. يضرب بقدميه حافة السرير، ثم يطعن بهما الفراغ لأعلى، كأنه سيهدم السقف علينا.

يعاود دفع رجليه الطويلتين المتصلبتين معاً بسرعة وقوة وسط صراخ يشبه خوار حيوان جريح. ثم فجأة يهلل: الله حي.. الله حي.. الله حي.

....

أقف مستسلماً تحت مياه «الدش»، أتأمل وراء النافذة الصغيرة، الحمامة البيضاء في «منور» البناية وهي تتلفت حواليها ولا تراني من وراء الزجاج. أقول لها من وراء زجاج دون مبالاة: «صباح الخير». معجزة لو كان الحمام يقول لنا «صباح الخير»!

....

كتاب دبي الثقافية 92
الإصدار «٩٢» سبتمبر ٢٠١٣

«صباح الخير يا أبو جوني»

ألمح حبيبات العرق على صلعته تلمع في الشمس. ونحن في السيارة يتحدث باندماج وتأثر عن الزبائن الذين خدعوه أمس، مع أنه حكى لي عن الزبائن أنفسهم، بعد ساعة واحدة من الخديعة!

أجلس مستسلماً إلى جواره، حالة لا هي موت ولا نوم. أفتح عيني بصعوبة كأن فيهما ملحاً وحلقي جاف لم يرطبه هذه المرة كوب الشاي بالحليب. لا أدري، لماذا توهمت أن العصافير التي تحلق أعلى منا كانت تحمل في مناقيرها بيضاً صغيراً تقترب منا ثم تلقيه على زجاج السيارة الأمامي فأغمض عيني في حركة عصبية لا إرادية!

تعودت أن أكتب له عناوين الزبائن حين يتصلون به أثناء السير. الجو مشمس لكن حرارته قاتلة ومكتومة بلا ريح ولا نسمة. إنه الموت وأنا راض به. لا أحد ينتظر عودتي ولا أتحمس لسماع صوت أحد، جميع من أعرفهم. وأحبهم، صاروا بعيدين جداً. ثمة حاجز شفاف قاس بيني وبين جميع البشر. صورهم تتحرك في فراغ ذاكرتي بلا معنى، بلا إحساس معين. لا أنتظر أن يفيدني أحد أو يساعدني أحد على تجاوز تلك الحالة. ابتسامة طفل غامض لا أعرفه لم تعد تؤثر فيّ كما

كان يحدث في الماضي، فقط أنا مستسلم في السيارة أمضي مع «أبو جوني» على الدائري الثالث في طريقنا إلى مقر عملي مثل كل يوم. لا أميز السيارات من حولي، أحياناً أنتبه إلى سيدة تتربص بسيارتها على أحد المخارج كي تلقي بنفسها في نهر الطريق، تبدو حذرة متلهفة وفي عينيها الواسعتين اشتهاء غامض للحياة. يريحني أن معظم قادة السيارات لا يستخدمون «الهورن» فلا ضجيج صاخب يخرجني من حالة الخدر تلك، أشاهد غير مبال حركة انسيابية لسيارات فخمة كبيرة تمر وتتهادى في نعومة على الجانبين.

....

«أبو جوني» لم تمنعه أعوامه الستون من تنعيم ذقنه وإخفاء نصف صلعته ببراعة بالخصلة التي تبقت من شعره الناعم. وبرغم كل الظروف السخيفة التي يتورط فيها، ومنها ضياع جواز سفره، ينسى بسرعة كل الأحزان ويضحك مثل طفل على أي موقف يحدث أمامنا في الشارع.

كان صوتانا يضيعان وسط ضجيج نجوى كرم في الراديو: «سحرني وأثر في». بدوري حكيت له عن مأساة صديقي بلال المزمنة مع الكوابيس، لأثبت له أن في الحياة مآسي أخرى غير المساومة على الفلس وعنجهية الزبائن وضياع جواز السفر.

واضح أنه تأثر، لأنه في كل مرة كنت أودعه صاعداً إلى البناية مع أذان العشاء كان يقول لي: «سلم على بلال صاحبك.. الله معك».

....

«صباح الخير يا أبو جوني»

ألمح حبيبات العرق على صلعته وهو يأكل بنهم قطعة كنافة بالجبن ملفوفة في القصدير.

أجلس مستسلماً إلى جواره، حالة لا هي موت ولا نوم. أفتح عيني بصعوبة كأن فيهما ملحاً. لا أعرف لماذا ذكرني منظر أبو جوني وهو يأكل الكنافة بطفولتي.

عندما كنت طفلاً، كان بصري يتحرك بطيئاً في الفضاء مأخوذاً باتساع النهر. أحياناً أقذف بعنف وفرح طفولي بعض الأشياء في الماء المظلم العميق. أتأمل عيدان الغاب والتين الشوكي المنتشر هنا وهناك. كنتُ أجلس بانتظار السفينة التي تقلني مع أبي من كفر سليمان إلى فارسكور على الضفة الأخرى من نيل دمياط. كانت المياه صافية تترقرق في الشمس وتمتد بعيداً. قلة الأشجار تضاعف حضور الماء الشاسع أمام عيني. كان المشهد صامتاً وشمسه حنوناً عن تلك الشمس اللاهبة الآن. الهدوء مشابه لكن شعوري آنذاك كان أكثر انجذاباً إلى

الحياة.. شمس ونسمة ناعمة.. شجر وماء رقراق وحمام أبيض يرفرف بعد أن يرتشف لذة الوجود واقفاً على حافة النهر.. مملكة لم يلوثها ضجيج البشر بعد في هذا الصباح الباكر. كان أبي يحذرني ألا أتطلع إلى السماء طويلاً لأن الشمس ستؤلم عيني. يعطيني قطعة بسبوسة وكوب شاي بالحليب. لا أعرف كيف أستعيد تلك اللحظة الآن ولا لماذا تسربت لذة الشعور ببهجة الحياة مع مرور الزمن وتباعد الأماكن والوجوه؟!

هذه آخر إشارة مرور، سأصل بعد دقيقة إلى مكان عملي، ويجب أن أشعر أنني عدت للحياة وأبدأ يوماً جديداً.. ليس جديداً تماماً لكن هكذا يفترض أن يكون.

....

«مساء الخير يا أبو جوني».

كانت الشمس اختفت مبكراً جداً عن موعدها، تحت وطأة الغبار الكثيف والسحب الرمادية الكئيبة. وكانت هناك ريح خفيفة لكنها لاهبة تلفح الوجه.

أبو جوني أخبرني أثناء عودتنا ماذا فعل مع كل زبونة من اللواتي كتبت له عناوينهن. أبتسم مشفقاً لأن ما يحكيه من فتوحات جنسية عابرة لا يقدر عليه شاب في العشرين وليس عجوزاً قصير القامة بلا جواز سفر!

....

ضوء الصالة الشحيح يتسرب من زجاج الباب العلوي، فأرى بلال يعاود رفع رجليه المتصلبتين لأعلى كأن يداً خفية تسحبهما سحباً نحو السقف وهو يتملص منها. يصرخ بعنف ويتملص بجسده الهائل فتعاود اليد الخفية سحبه لأعلى.

أقضي الليل إلى جواره صامتاً مستعداً للموت. أجفف كل أحاسيسي تجاه الحياة، أحرق آخر ذرة تعلق بها. لا أنتظر الغد ولا بعد الغد. لكن الموت يتمرد علي ولا يأتي أبداً في عتمة المساء، كما أتوقعه. لا أفهم منطق الغدر في الموت، يقولون «أخذه على حين غرة» وهذا ما لا أريده لنفسي. لذلك أشحذ كل جهدي لأبقى صامداً وأفتح عيني على اتساعهما حتى لا يأتيني الموت خلسة. كل ما أفعله هو الانتظار بلا أدنى رغبة في أي شيء.

عندما يصرخ بلال في عمق الليل ومن داخل كابوس لا أعرف تفاصيله أتصور أنه رآني ميتاً بجواره وأن لحظة موتي حانت سهواً قبل أن أنتبه لها. مازلت أعي ما يدور حولي، فهذا صراخ بلال يخترق سكون الليل، أسمعه وأنا نائم.

....

المساء مرة أخرى.

صعدت درج البناية مع «أبو جوني» برغم العتمة، كانت

هناك لمبة وحيدة حمراء تلقي ظلالاً وتجعلنا مثل شبحين، أضواء حركة السيارات في الخارج تنعكس على أكثر من نافذة. كنتُ أحمل في يدي كيساً أسود ينز سائلاً بارداً. قلت له منفعلاً وأنا أفلت معصمي من يده:

«أنا مالي ومال تركيب الستائر يا أبو جوني؟!»

قال: «خيي.. تعال أعرفك على المرة المتصابية.. تعال.. فرصة..

زوجها الآن على قهوة أبو ناشي».

دخلنا شقة عابقة برائحة دهن العود. جلست في الصالة، أغمض عيني وأفتحهما لأستوعب سطوع الضوء بعدما سرنا طويلاً في العتمة. أبو جوني استرخى أرضاً على فخذ المرأة صاحبة الشقة كأنه طفل صغير، ظل يعبث في هاتفه ويرن علي وأنا جالس على الصوفا أصيح عليه:

«كفرتني برناتك يا أبو جوني.. ارحمني.. يلعن عرضك»

يرد عابثاً: «انزل.. تعال نام جنبي على فخدها التاني».

من باب الغرفة الموارب خرجت فتاة ممتلئة، يسبق وصولها عطر ياسمين فواح مثير للرغبة. زاد الكحل عينيها اتساعاً. في عينيها اشتهاء غامض للحياة، كانت شبه عارية ترتدي ثوباً أزرق شفيفاً. سألت «أبو جوني»:

«دي مروة اللي بتغني أما نعيمة؟»

ضحك وعاتبني لأنني أنسى دائماً ما يقوله لي، فالفتاة ابنة المرأة المتصابية التي يستلقي على فخذها، لكن من زوج آخر غير زوجها الذي يجلس الآن على قهوة أبو ناشي.

الفتاة أصابتها حمى الرقص ببطنها وردفيها، ترتفع وتضرب الأرض بقدميها حتى تهتز كل الكتل العالقة في جسدها. وهي تغمز لي تأكدت أنها هي نفسها انتصار زميلتي في المؤسسة التي أعمل بها لكنها تضع باروكة كي لا أعرف حقيقتها.

....

لم أقتنع برقص انتصار الهمجي العنيف وحتى إيقاع أغنية «سحرني» لا يصلح للرقص عليه بهذه الطريقة. لكن «أبو جوني» الذي جاء إلى الكويت قبل خمسين سنة لتوفير خمسمائة ليرة كي يفتح محل حلاقة، والذي أضاع جواز سفره قبل ثلاثة أيام فقط، تحول بقامته القصيرة إلى نحلة رشيقة يدور حول الفتاة وهي ترقص في دوائر كاملة، خفيفاً فارداً جناحيه ومتمايلاً في نشوة وسكر. ابتسمت وأنا أتابعه بنظراتي. أعجبتني طريقته في التخلص من حزنه وشيخوخته وحقارة زبائنه. رقصته تطابق رقصة صباح فخري عندما تأخذه نشوة الطرب، باستثناء أنه كان مهتماً بإعادة خصلة

شعره فوق صلعته.

....

على أريكة خلف النافذة المطلة على البحر مباشرة كان بلال يصرخ وهو نائم. يضرب بقدميه حافة الأريكة، ثم يطعن بهما الفراغ لأعلى، كأنه سيهدم السقف علينا.

لم أنتبه إلى وجوده إلا في هذه اللحظة! هو أيضاً لا يرانا ولا ينتبه إلى وجودنا. كان غارقاً في كابوسه المعتاد رافعاً رجليه معاً إلى أعلى كأنه يؤدي تمارين لشد البطن. يوشك أن يرفع السقف ويفتحه على السماء. عندما لمس السقف أخيراً برجليه صاح: «لا إله إلا الله» فتلاشى صوت الغناء والموسيقا ورنات أبو جوني المزعجة.. فقط صيحة بلال ترددت كأنها صدى صوت قادم من بئر عميق: «لا إله إلا الله».. أخيراً شق السقف وطار.

....

انفتح السقف كما انشق البحر بعصا موسى، فهرب أبو جوني في سيارته ماليزية الصنع مع المرأة وابنتها المربربة التي تشبه المغنية مروة أو انتصار زميلتي في المؤسسة.

رأيت أبو جوني يقود سيارته فوق مياه البحر وهو يزعق على المرأة:

«خلصينا، هاتي خمسمائة ليرة يلعن عرضك».

من نافذة صغيرة في الحمام دخلت غربان كثيرة وربضت على صدري، فزاد ثقلاً على ثقل، جسمي كله ينتفض على فترات لكنه عاجز عن الحركة، الأمل الوحيد الذي تبقى لي أن يعود زوج المرأة الآن من قهوة أبو ناشي فيزيح الغربان بعيداً عن صدري، مع أني شبه متأكد أن «أبو جوني» يكذب علي في أشياء كثيرة، وإذا التقيته صباح الغد وسألته عما حدث سيتهمني أنني كالعادة أخلط بين الأرملة اللعوب والزوجة المتصابية.

مازلت يقظاً حتى لا يغافلني الموت، كل نصف ساعة أتفاجأ أنني غفوت لكن شيئاً ما وخز جسمي كله فأنتفض مفزوعاً، ثم أستسلم مرة أخرى. أضم أطرافي حول روحي كجنين يترقب العودة إلى رحم أمه.

كل صور الوجوه التي أحببت وكرهت تراءت لي.. عشرات الوجوه تتجمع في ساحة كبيرة بيضاء في ذاكرتي، كأنها تستعد لطقوس جنائزية مرتقبة.

تصيبني قشعريرة من برودة المكيف، فأسحب الغطاء وأدرك أن رأسي كان ملتوياً وفمي مفتوحاً كهيئة الموتى. هل كان شبحه يحوم هنا حول الفراش ويتأهب لاستلال الروح من فمي المفتوح؟

لا أستسلم للنوم بسهولة. الموت كالنوم، يبدأ حين تتلاشى الأصوات جميعاً وتتراءى الحركة خيالات بطيئة متباعدة.. البحر هناك وراء النافذة أزرق رائق.. شاسع.. نائم تحت شمس ذهبية، سفينة وحيدة تسبح فوقه، لا أرى عليها سوى أبي بملامحه السمراء الطيبة وجلبابه الأبيض النظيف كان واقفاً على الحافة يتطلع إلى الشاطئ وهو يبتعد وقد ظلل عينيه بكف يده وعلى كتفه وقفت حمامة مزركشة بألوان الطيف.. نشرت الغربان السوداء أجنحتها على امتداد البصر، تأرجحت مثل سحابة معتمة.. تبتلع كل الأصوات.. كل الخيالات البطيئة.. وسيارة أبو جوني من بعيد تهرول فتثير الرذاذ دون أن تلحق بالسفينة العالقة عند نهاية الأفق.

وفاة غامضة لعدو صامت

(١)

الخبر تسرب بعد العصر. دخل علينا سكرتير المؤسسة وهو شاب لبناني أبيض ممتلئ بالصحة. كنا نجلس على مكاتبنا المتقابلة في غرفة كبيرة عبارة عن قفص زجاج شفاف بلا نوافذ. تطلعنا إلى هيئة السكرتير وأنفاسه اللاهثة وتوقفنا عن تبادل النكات الجنسية. قال:

«أبو سعيد عطاكم عمره يا جماعة»

أشار زميلنا السوري بسبابته المرفوعة في عصبية مرتين، وهو يردد:

«أبو سعيد! أبو سعيد ما غيره»؟!

اتجهت أبصارنا مع سبابة زميلنا نحو مكتب أبو سعيد الشاغر في الغرفة الزجاجية الملاصقة لنا. لا يفصلنا عنها سوى لوح زجاجي كبير مؤطر بألوميتال بُني.

ظل السكرتير واقفاً صامتاً في الممر بين مكاتبنا. كأنه يستعد لطقوس الجنازة، ثم ترجرج جسده الضخم فانتشرت رائحة عطنة وازداد خداه بروزاً. استند بجزء من مؤخرته على أحد المكاتب وقال:

«إذا أهله طلبوا دفنه في لبنان من سيتحمل تكاليف نقل الجثمان؟! أشك أن المؤسسة تصرف له مكافأة نهاية الخدمة مع أن المرحوم قضى نصف عمره في خدمة أصحابها».

ثم شرح لنا كيف أن الراحل حصل أمس فقط على إجازة من العمل. جاء قبل الظهر إلى الشؤون المالية لاستلام «شيك» الإجازة مدفوعة الأجر، ثم سلم على الجميع وأخبرهم أنه سيسافر إلى بيروت بعد ثلاثة أيام لحضور زفاف ابنه. قلنا في نفس واحد:

«قلبه حاسس»!

قلت في سري: «فعلاً سيصل إلى بيروت بعد ثلاثة أيام لكنه سيكون مغمض العينين، نائماً بين حقائب المسافرين ولعب الأطفال والأجهزة الإلكترونية».

(٢)

الخبر تسرب بعد العصر. لمحنا زميلتنا وفاء الشهيرة بـ «رويتر» آتية في الطرقة من بعيد تجر قدميها بخطوات بطيئة. دخلت علينا، الموبايل على أذنها وملفات الشغل على صدرها، كانت تهمس لشخص ما على الطرف الآخر وهي تهز رأسها في حسرة وأسف. الدموع تلمع في عينيها دون أن تسقط. أغلقت

الموبايل وقالت وهي لا توجه الكلام إلى أحد بعينه:
«رجل طيب.. عرفته من ١٢ سنة لم يؤذ أحداً»
زميلنا السوري قال مازحاً: «للأسف»! ثم مسح على ما تبقى من شعر رأسه: «الله يرحمك يا أبو سعيد.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. أمس، بعد العصر قابلته عند دورة المياه وابتسم في وجهي».
كنتُ لمحته أمس أيضاً وهو يعطي أحد العاملين في قسمه ورقاً. مشيته وقور كأنه برنس من عصر الباشوات. استدار وتطلع إلي بطرف عينه من وراء الزجاج. نظرته ضيقة وثاقبة. عاد إلى مكتبه وصمت عن أية حركة. كانت سلسلة الساعة الفضية تتدلى من صديري البدلة الصوف، و شاربه كان محفوفاً بعناية فائقة لا تنفلت منه شعرة واحدة.
كان يظل هكذا ساكناً بالساعات كأنه تمثال نصفي يستند بالكوعين فوق المكتب، بينما أشاح بوجهه بعيداً عن عيون الجميع وتطلع إلى السماء والشمس الغاربة خارج المبنى. وغليونه كان عالقاً بين شفتيه الشاحبتين، لا يهتز ولا يتأرجح. يظل هكذا بالساعات مراقباً. لولا الدخان الخفيف الذي يتماوج أمام وجهه لبدا ميتاً ومحنطاً. خيوط دخان كانت تتدفق على مهل من غليونه العاجي إلى ما لا نهاية.

زميلنا السوري سأل وفاء: «سيدفن هنا أم في لبنان؟»
ردت باقتضاب:
«لا أعرف»

(٣)

الخبر تسرب بعد العصر. دخل علينا عزت أقدم العاملين في قسم الترجمة. كان يمشي محنياً بعض الشيء، ملابسه الفضفاضة تثير حوله موجة من الفوضى. طالعنا من أسفل بعينين مراوغتين وقال:

«تخيلوا.. صاحبكم مات وهو سكران»!

زميلتنا وفاء كانت واقفة وملفات الشغل على صدرها، ردت غاضبة:

«عيب على شيبتك يا عم عزت.. اذكروا محاسن موتاكم!»

رد عزت محتداً:

«مالكم؟ نسيتم لما فضّل علي انتصار؟ نسيتم؟! جننته بمؤخرتها
الكبيرة قد الكرنبة وهي كل دقيقتين تمشي قدامه وتهزها لفوق
وتحت».

راح يقلد انتصار رغم قصر قامته ويهز ردفيه على طريقتها. كان في عينيه لمعة فرح خفيفة. طلب منه زميلنا السوري أن يقف هو وزملاؤه في القسم وقفة رجولة مع أسرة الفقيد، فهز كتفيه في لامبالاة قائلاً: «المهم الشغل يمشي.. أنا هنا منذ ثلاثين سنة وودعت زملاء بعدد شعر رأسي»

أشاح زميلنا السوري بوجهه في الجانب الآخر وقال: سبحان الله.. ساعة ما عرفت الخبر تذكرت عم عبده المصري لما مات من خمس سنين يومها اتصلنا بزوجته في حي الألفوشي (هكذا نطقها مازحاً) لتدبير نفقات نقل الجثمان واتصدمنا لما لعنته حياً وميتاً وقالت: «ادفنوه عندكم في ستين داهية»!

(٤)

الخبر تسرب بعد العصر. جاء زميلنا في قسم التدقيق لاهثاً يدفع كرشه أمامه بصعوبة، وتظهر فانلته الداخلية البيضاء أسفل الكرش. قال بلهجة عفوية كلها انفعال وحماس:

«البقاء لله يا جماعة.. أبو سعيد لقوه ميت قدام الجمعية».

انتبهنا بفضول إلى التفاصيل التي يرويها لنا ببساطة، كأنه يحكي مثلاً كيف فازت البرازيل على الأرجنتين! روى

كيف هبط أبو سعيد من سيارته الفورد وعلى باب الجمعية سقط ميتاً.. فتشوا في جيوبه ولم يعثروا على أي كارت يحمل اسمه أو عنوانه، بعد بحث وفحص عثروا فقط على «نوتة» صغيرة بها هاتف «أبو انتصار»، اتصلوا عليه وسألوه إن كان يعرف عجوزاً في السبعين تقريباً، يرتدي بدلة بنية وله صلعة خفيفة. كادوا أن ييأسوا لأن «أبو انتصار» لم يتعرف على اسمه رغم كل هذا الوصف، إلى أن قال لهم متردداً: «احتمال انه رئيس بنتي انتصار في الشغل».

في هذه اللحظة رأينا انتصار قادمة من وراء الزجاج. لم تأت إلى مكتبنا بل دخلت مباشرة إلى مكتبها المجاور لنا. كانت ترتدي بلوزة زرقاء وبنطلون جينز ضيقاً يضاعف حجم مؤخرتها التي ترتج مع مشيتها القوية. ورأينا عزت نائب «أبو سعيد» يتطلع إليها من تحت لتحت كلما تحركت وهي تلملم أوراق المرحوم وجراب النظارة وأشياءه المتبقية. ليس على وجهها الشاحب أثر لماكياج باستثناء الكحل الذي زاد عينيها اتساعاً. جلست على مكتبها الملاصق لمكتب رئيسها الراحل. وضعت رأسها بين يديها وانكفأت على المكتب.

هرول إلينا عزت متهكماً:

«شفتم قلبها رقيق جداً.. المسكينة تبكي عليه بحرقة كأنه

من بقية

أهلها.. مع أنها مصرية وهو لبناني!

تجاهلت زميلتنا وفاء كلامه، وقالت:

«معقول رجل في السبعين يروح الجمعية لوحده في عز الظهر»!

قلت:

«أكيد احتاج لتبغ لتعمير غليونه».

(٥)

الخبر تسرب بعد العصر. دخل علينا سكرتير المؤسسة وهو شاب لبناني ممتلئ بالصحة. تطلعنا إلى هيئة السكرتير وأنفاسه اللاهثة:

«أبو سعيد عطاكم عمره يا جماعة»

لحق به عزت أقدم العاملين في قسم الترجمة. كانت ملابسه الفضفاضة تثير حوله موجة من الفوضى. طالعنا من أسفل بعينين مراوغتين وقال: «شفتم.. صاحبكم مات وهو سكران»! ثم توقف عن الكلام عندما لمح زميلتنا انتصار التي تعمل تحت إمرة أبو سعيد وكانت مقربة جداً منه، تدخل علينا. كانت ترتدي بلوزة زرقاء وبنطلون جينز وليس على وجهها

الشاحب أثر لماكياج باستثناء الكحل الذي زاد عينيها اتساعاً. غمرتنا رائحة الياسمين التي تميزها. لم تتكلم، ونحن بدورنا لم نعرف ماذا نقول لها!

نهضت زميلتنا وفاء وربتت على كتفها:

«البقاء لله يا حبيبتي»

«حياتك الباقية»

غمزت لنا وفاء وربتت على صدرها:

«ومبروك عليك رئاسة القسم.. والله أنا فرحت لك»

فهمنا أنها تريد إغاظة عزت نائب «أبو سعيد» والأحق بالرئاسة بعد وفاته. انفرجت وانقبضت أسارير عزت وتطلع مذهولاً في وجه وفاء ثم في وجه انتصار، وهرول إلى قسمه.

من وراء الزجاج الذي يفصل بين القسمين، رأينا عزت واقفاً متصلباً على بعد خطوتين من مكتب رئيسه الشاغر. يدفع بيديه في كل الاتجاهات بحركات عصبية وملامح ملتوية. يتقافز في مكانه. يضرب حافة مكتب رئيسه بقبضة يده عدة مرات. يتراجع إلى الوراء ثم يهجم كالقط البري على المكتب الشاغر.. يبصق مستدعياً على الأرجح وجه رئيسه الذي حلق بعيداً. (٤)

٤- البدايات في العادة سهلة وحماسية أما النهايات فهي بطيئة جداً إلى درجة أننا نكون غير متأكدين هل هذه هي النهاية أم لا! ويحدث أن أستيقظ ليلاً وأفتح الكمبيوتر، لأقوم بعملية copy and paste أي أنقل البداية بدل النهاية والعكس. وهذا النص في حقيقة الأمر ليس سوى خمس بدايات لمسودة قصة لم تنته بعد.

زائر أم الرشراش

ختم فرد الأمن جواز سفري، وسألني بلكنة عربية مكسرة:

«أول مرة تزور إسرائيل؟»

هززت رأسي:

«yes»

لا أدري لماذا أجبته بالإنجليزية! كنت حذراً أكثر مما يجب. وصلنا تقريباً في العاشرة مساء، ضمن فوج عربي، نحو مائة شخص، مغاربة على مصريين وأردنيين. كان المطار شبه خال في تلك الساعة. هدوء ومساحات شاسعة من الضوء الأبيض. رغم أن الإجراءات الأمنية عادية، كما هو معتاد في أي مطار آخر في العالم، لكنني كنت متوجساً في كل لحظة من إطلاق الرصاص عليّ دون ما سبب معين. ماذا لو اشتبه أحدهم في حقيبتي القماش التي أحملها على كتفي؟!

ضابط الجوازات تشاغل بتصفح جواز سفري، بغلافه الأخضر، للتأكد من ختم الدخول، بينما يطالعني بتلك النظرة الأمنية التي أعرفها جيداً: نظرة حادة مختلسة. سألني عن سبب الزيارة فقلت، وعلى وجهي ابتسامة بليدة:

«Tourism»

الأفضل أن يكون الرد صريحاً حاسماً. كل ما أحمله في حقيبتي يؤكد أنني جئت مسالماً بحثاً عن المتعة والتسلية. ليس أفضل من الصراحة كي يتجنب المرء إطلاق النار عليه في أية لحظة.

الأتوبيس السياحي الأزرق الذي أقل فوجنا العربي غير المتجانس في لهجاته ومشاعره، اتجه بنا إلى طريق الشاطئ، إلى أن وصلنا إلى فندق «أمريكانا» من فئة ثلاث نجوم على شاطئ إيلات. علمنا مسبقاً أن الليلة الواحدة للفرد تكلف خمسين دولاراً. كان النخيل المزروع على مدخل الفندق مريحاً لي وقد خفف من توتري الداخلي، كما أعجبني شكل حمام السباحة المصمم على شكل قلب يترقرق فيه ماء أزرق تنعكس عليه مصابيح ليلية خافتة فتزيده شاعرية وغموضاً. حتماً سيكون هناك وقت للماء و اللعب والسباحة!

في «اللوبي» ركن مخصص للانترنت، لم أر أحداً سوى كهل أسمر محني على «لاب توب» يكتب بسرعة دون توقف، صمت وطرقات أصابعه على الكيبورد. على الطاولات الصغيرة كتيبات سياحية ملونة باللغتين العربية والعبرية، تصفحت بعضها أثناء ارتشاف نسكافيه بالحليب. اسم إيلات مأخوذ من «آيلة» المذكورة في سفر الملوك الثاني. معلومة أخرى

عرفتها عن المدينة من موقع مصري على الإنترنت، عن اتهام رئيس الوزراء الإسرائيلي المقتول إسحاق رابين بأنه قاد عملية في أم الرشراش إيلات لا حقاً قتل خلالها أكثر من ٣٠٠ جندي مصري من حرس الحدود شنقاً ورمياً بالرصاص وقد دفنوا في مقبرة جماعية مع أسلحتهم البيضاء ومصاحفهم في عملية عرفت باسم «عوفيدا» في مارس ١٩٤٩.

من حسن الحظ أن لا أحد يستفتي الجنود القتلى في توقيع اتفاقات السلام! للحظة، تخيلت نفسي جئت لـ «السياحة» فوق جثث ثلاثمائة جندي مصري مجهولين! من المؤكد أن عشرات الجثث الأخرى تحت الأرض هنا.. لصليبيين وقبائل بدوية وأردنيين وفلسطينيين. مَن يدري؟ التاريخ في المحصلة ليس سوى رصد لأرقام الجثث التي انتهى مصيرها تحت الأرض.. وأسماء الزعماء الذين انتصروا فوقها.

كنت تحت وطأة فكرة تراودني كلما زرت أي بلد: أن أتجول فوراً سيراً على قدمي.. وحدي في ليل المدينة الغريبة.. أسمع أنفاسها، أراها وهي نائمة.. علامات الضوء البعيدة في النوافذ.. المارة الذين يظهرون ويختفون فجأة في شوارعها.. أعلم أن العقبة الأردنية وطابا المصرية على مرمى البصر، لكن المشاهدة على الطبيعة غير المعلومات الكثيرة المخزنة

في الرأس.

أول مبنى لاح لي بالقرب من الفندق كان عبارة عن سور خرساني مرتفع لأعلى من مستوى النظر، ويشغل مساحة كبيرة نسبياً إلى أن ظهرت بوابة حديدية عملاقة وفوقها لافتة مكتوب عليها باللغة الإنكليزية:stable horses royal ثم علم بريطانيا يرفرف في هدوء.

الشارع خال تماماً من البشر، أشجار متباعدة مسترخية في عتمته، كأنه غير مأهول بالحركة والناس منذ سنوات. فضلت ألا أبتعد كثيراً عن الفندق وألا أدور في شوارع كثيرة حتى لا أنسى طريق العودة. كان رأسي مشتتاً بين هاجسين: هاجس القناصة الذين يختفون فوق الأسطح أو وراء نوافذ مفتوحة ومعتمة، فقد أصبح فريسة مجهولة لأحدهم، ولا يطلع عليّ نور الصباح. الهاجس الآخر أن هذا الشارع الطويل نسبياً، الذي يشغل الاسطبل الملكي أكثر من نصفه، قد ينتهي بي إلى ملهى ليلي فأقضي بقية السهرة بصحبة شقراء من أصل روسي أو بولندي.

أمشي بحذر شديد. خطواتي رتيبة حتى لا ألفت نظر القناص الموهوم وراء إحدى النوافذ. لا أرفع رأسي أكثر مما يجب كي لا يظن أنني كشفت مخبأه.

كانت اللافتة الأخرى، التي لاحت لي، مكتوباً عليها «أم الرشراش» مرفوعة على دعامة حديدية محاطة بالصخور الجيرية. ثم ظهرت مجموعة بيوت عتيقة من طابق واحد متناثرة هنا وهناك إلى أن تغلق مسار الشارع الرئيسي. رأيت من الناحية اليمنى رجلاً عجوزاً يرتدي جلباباً أبيض فضفاضاً، وينتظر فوق فرس بيضاء، على بعد خطوة منه درويش بلحية شهباء غير مشذبة وشعر غجري طويل، كأنه خرج للتو من أيقونة مسيحية. سار العجوز فوق فرسه على مهل وتبعه الدرويش حافياً، بدوري سرت وراءهما إلى أن رأيت عدداً كبيراً من الرجال المشاة، ربما ثلاثمائة أو أقل، يجولون مثل أشباح في ساحة ترابية، ملامحهم مصرية خالصة: السمرة، الشفاه الغليظة، الحزن و آثار الأنيميا. حول خصورهم تتدلى خناجر في غمدها وفي أيديهم مصاحف متوسطة الحجم. كانت لهم نظرات نارية تخترق عتمة الليل.

«Tourism»

هكذا حضرت نفسي للإجابة عن السؤال المتوقع، لكن أحداً لم يسألني مَن أنت؟ ولا أين تذهب؟ لا شك أن هؤلاء هم حراس الحي العربي في المدينة.. حي السائقين وعمال البناء وخدم الفنادق ومدلكي العجائز المتصابيات. أو على الأقل هذا ما ظننته. كانت الشوارع الجانبية، متربة، ملتوية، وبلا

إضاءة تقريباً. الحي كله كان شاحباً منسياً تنبعث منه رائحة الصابون والكيروسين وتقلية البصل بالطماطم. على الجدران شكلت الرطوبة خرائط متآكلة فوقها صور بالأبيض والأسود لزعماء عرب وفلسطينيين منهم عبد الناصر وعرفات والشيخ أحمد ياسين.

على إحدى النواصي التف حولي عدة نساء بائسات، من أوزان وأطوال مختلفة. بدا الأمر أشبه بمزاد سريع للدعارة: يُقام فور وصول أول زائر، وينتهي بفوز إحداهن به. جميعهن تبارين لعرض أنفسهن مقابل مائة شيكل. إشاراتهن الجنسية مبتذلة ومرحة. إحداهن وهي حامل في شهرها السابع على الأقل، جذبتني من أعلى البنطلون باتجاه سلم حديدي ضيق. صعدت خلفها ممسوكاً من البنطلون نحو غرفة علوية مسقوفة بعوارض خشبية محترقة من الوسط. بخفة من اعتادت على هذا الفعل، خلعت الإيشارب وجلبابها الجينز الأزرق الذي ترتديه على العري. كانت شابة خمرية البشرة، ممتلئة قليلاً، فارعة الطول، وثمارها متهدلة. استلقت عارية فوق السرير ذي القوائم النحاسية، ثم لفت ساقها اليمنى فوق اليسرى وانتظرتني وهي لا تبالي بطبقة التراب الخفيفة على باطن قدميها.

من كان يتصور ذلك؟ حي عربي غامض وشابة حامل لا

تكترث بإظهار أية عاطفة حقيقية نحوي.. ثم إن قبة اللحم الملساء هذه كانت تبعدني عنها نفسياً مئات الأميال! لتخفيف ارتباكي اقترحت عليها إذا أنجبت ولداً أن تسميه على اسمي وسأعطيها مائة شيكل زيادة على أجرها فوافقت دون أن تسألني أصلاً عن اسمي.

وضعتُ يدي بحذر فوق بطنها واكتفيتُ بقبلة على أعلى نقطة. كنا نسمع دوياً متقطعاً لرشاشات آلية. أدارت وجهها نحو النافذة وشتمت: «ملعون أبو الحرب». جملة يرددونها كثيراً في الأفلام، لكنها هزتني بعمق من الداخل. كأنني سمعتها في زمن ما بصوت الشابة الحامل نفسها.. تبدو مألوفة لي كأنني أعرفها.. كأنني رأيتها في ماض ما في مكان ما!

ألا يحدث هذا.. أن ينتبه المرء للحظة ما فيشعر أنه مر بها في زمن سابق: الكلام نفسه.. الشخص نفسه.. الإحساس نفسه؟!

دوي الرشاشات يتواصل صاخباً وراء الجدار، ومضات نار تبرق على زجاج النافذة، تتلاشى. الشابة، التي لا أعرف اسمها، نهضت غاضبة، انزلقت داخل جلبابها سريعاً، ثم التقطت سيفاً معلقاً على الجدار ودفعته نحوي. كنتُ مُسرنَماً، أو كمن يعيد مشهداً تمثيلياً أداه من قبل عشرات المرات. تناولت السيف من يدها واندفعت نحو الباب. في رأسي طنين لكلمات وصور، كأن

في رأسي صوتين سريين يحلان لعبة الكلمات المتقاطعة: فندق أمريكانا، اسطبل الخيل الملكي، شقراء روسية، جثث، سياحة، القناص، إسحاق رابين، مائة شيكل، عملية عوفيدا، خمسون دولاراً، جثث، حمام سباحة على شكل قلب، مصاحف، جثث، أسلحة بيضاء، عبد الناصر، حامل في السابع، أم الرشراش، أم الرشراش، أم الرشراش.

مازلتُ واقفاً على عتبة باب في غرفة علوية، في يدي اليمنى سيف مرفوع، وفي يدي اليسرى كيس أسود ينز سائلاً غريباً. الشابة الحامل أشعر بها خلفي على بعد خطوة واحدة.. أحدق مذعوراً في فراغ شاسع أمامي: الغرفة كلها معلقة بين السماء والأرض.. في فراغ أبيض.. السلم الحديدي هو الآخر معلق في الهواء، يتأرجح في الفراغ على مسافة أمتار قليلة.. حراس الحي الذين رأيتهم منذ دقائق.. بملابسهم العتيقة وخناجرهم كانوا معلقين على أعواد المشانق.. الجثث والمشانق متناثرة في فراغ أبيض لا نهائي.. كل ما أراه يتأرجح مثلي.. فراغ شاسع.. كنتُ معلقاً في الهواء على وضعية فارس على وشك السقوط.. على وشك التوازن.. على وشك السقوط.. خلفي مباشرة كانت الشابة الحامل تستعير صوت راهبة مقدسية.. تتلو بحنجرة شبحية مقطعاً من سفر الملوك:

«هكذا قال الرب إن السرير الذي صعدت عليه لا تنزل عنه بل موتاً تموت».

«موتاً تموت»

«موتاً تموت»

ثم دفعتني بيديها في الفراغ.

السيدة المختفية

وجه شاحب لجندي. كان واقفاً تحت الشمس يراقب الأفق والسراب البعيد. وكانت قطرات العرق تلمع فوق أنفه المفلطح وعلى جبينه علامة صلاة بنية غامقة.

وجه الجندي ممصوص من آثار الأنيميا، وشاربه الرفيع يجعل شفته العليا أكثر إطباقاً على شفته السفلى.

خلفه بخطوتين جندي آخر في زي مماثل زي الأمن المركزي الأسود كانا يتحركان ببطء في فضاء صحراوي خامل وفقير من المباني. يكتفيان بإشارات باليد دون أي كلام. وهكذا كان الوقت يمر، إلى أن رأى أحدهما خلف الحدود ثلاثة شبان يحملون سيدة عجوز ويجرون بها نحو المعبر. رفع الجندي غطاء الرأس ولوح لزميله، ومن بعيد سأله إن كان رأى شيئاً يتحرك، فهز زميله رأسه بالنفي!

بعدها ظهرت كتلة ضخمة من البشر مثل عاصفة تندفع نحوهما من الطرف الآخر للحدود، فراح الجندي يصفّر بصافرة معلقة على صدره، طلباً لمدد عسكري، ورفع زميله هراوته في وجوه القادمين لكنهم كانوا يحاصرونه بكثرتهم.

الجندي يقفز هاجماً بقدم للأمام وأخرى للخلف، حتى لا

تدهسه كتلة البشر تحت وطأة اندفاعها. ضربة خاطفة، ثم يدفع درعاً بلاستيكية شفافة في وجوههم ويقفز إلى الوراء. عصاه السوداء تلسع بعشوائية الهواء وأجساد لا يتبين أصلاً وجوه أصحابها.

دوت سلسة انفجارات. وفي دقائق معدودة تهاوت أجزاء من الحاجز الحديدي على امتداد النظر. حالة فوضى.. قضبان حديدية منتصبة لأعلى، كتل خراسانية تهاوت تحت وطأة الزحف البشري.. زاد الزاحفون من جهة وزاد عدد جنود الأمن المركزي القادمين من الجهة الأخرى.

صفوف مثل النمل الأسود تتجه يساراً ويميناً. كانوا متأهبين بعصيهم ودروعهم وخوذاتهم. يجرون في حركة منتظمة، وهم يدفعون ركبهم للأمام ولأعلى.

ارتفعت مئات العصي ودروع البلاستيك. اشتباكات عنيفة ومضادة وهزلية بين الجنود وحشود الناس. كأنهم يفرون من سجن كبير في ساعة الصفر.

خراطيم مياه ضخمة فتحها الجنود من مكان ما على أفواج العابرين. المياه غسلت الوجوه وجعلت الأشياء المبعثرة هنا وهناك زاهية أكثر.

أرجل الناس العنيدة ظلت لساعات تتحدى خراطيم المياه وعصي الجنود. تقفز بعيداً تتفادى الضربة لكنها لا تتراجع

أبداً عن العبور وتجاوز الخط الفاصل.

يبدو أن أمراً سرياً صدر للجنود، لأنهم انسحبوا فجأة واختفوا من حيث أتوا باستثناء أعداد قليلة وقفت على مسافة دون احتكاك بأفواج العابرين.

في أقل من ساعتين انشقت الأرض عن أسواق صغيرة على الحدود يباع فيها كل شيء: طماطم، دراجات نارية، صفائح جبن، علب حلاوة طحينية، أجولة أرز، بطانيات، وسائد، دفايات، تلفزيونات، أدوية، وعلب سجائر. كأنها بضائع مسروقة تباع على الأرصفة دون أدنى نظام.

وسط تلك الفوضى ظهرت مذيعة ترتدي باروكة شقراء وعدستين بلون البحر. كان في يدها مايك نبيذي عليه شعار أبيض وكانت تشرح بهدوء الفرق بين رفح المصرية ورفح الفلسطينية وهي تمد يدها البيضاء، الممتلئة، العارية من الأساور. تتحرك بثقة وسط الزحام والأسواق العشوائية. كان صوتها ليناً حميماً وهي تشرح خط سير عشرات الشاحنات التي تحمل أطناناً من السلع والمواد الغذائية، قادمة من طريقي الإسماعيلية، والسويس الصحراوي.

على مسافة خمس أو ست ياردات يقف مذيع آخر بدين وفي يده مايك أزرق عليه شعار ذهبي. كان مبللاً بللاً خفيفاً من رذاذ الماء، ويقول بصوت حماسي كأنه في غرفة عمليات

حربية: الشراء هنا يتم بثلاث عملات هي الجنيه المصري والشيكل الإسرائيلي والدولار الأمريكي. ثم يضغط ويمط ويشدد على حروف «الدولار الأمريكي» لأقصى ما يستطيع.

المذيعة مازالت تشرح لقناتها، وهي تمد يدها ثم سبابتها ثم ظفرها الوردي: كيف تحول بدو سيناء إلى تجار خلال ساعات قليلة. ألسنة وأفواه منفعلة وغاضبة تمر بسرعة أمام عدسة الكاميرا تقول إن سعر كيلو الطماطم ٣٦ جنيهاً، رغيف الخبز بجنيه، توصيلة بسيطة إلى العريش تكلف أكثر من مائة وخمسين جنيهاً.

بالقرب منها يقف زميلها المصور والكاميرا ثابتة على كتفه اليسرى. يسير وراءها ببطء شديد دون أن يعلق على شيء كأنه ليس في عجلة من أمره. له شارب محفوف بعناية، ويرتدي صديرياً رمادي اللون مكتوب عليه press

كان يتابع بالعدسة حركات المذيعة وإشاراتها. ثم أدار العدسة نحو امرأة عجوز ظهرت في مجال الرؤية. كان أبناؤها الثلاثة يحملونها على محفة ويجرون بها. كانت المرأة ملفوفة كلها في ثوب أبيض فضفاض، لكنها سرعان ما اختفت هي وأبناؤها من أمام العدسة، حيث سد الرؤية قطيع ماعز يمشي بهدوء خلف عجوز أسمر الوجه يلف رأسه بشال أبيض. القطيع خلفه منظم أكثر من البني آدمين. كان العجوز متجهماً وله

لحية بيضاء خفيفة. هز رأسه كأنه يكلم نفسه ثم اختفى هو الآخر من أمام العدسة.

المذيعة لوحت خلسة لزميلها المذيع البدين، تحييه. ثم واصلت الكلام بانفعال وهي تلهث، قبل أن تدفع «المايك» نحو من يرغب، ومن لا يرغب، في الكلام.

اقترب منها كهل خمسيني، يرتدي قميصاً أبيض نصف كم وبنطلون جينز باهتاً ونظارة سميكة بإطار أسود وهو يصيح في «المايك» ويشكر بصوت جهوري خشن، مصر وشعب مصر.

ناس لهم سحن متشابهة.. ذاهبون عائدون عالقون في الاتجاهين.. كأنه إفراج مفاجئ عن مليون سجين في لحظة واحدة.. نساء ورجال وصبية بصخبهم وهرولتهم وصراخهم المبتور، وعلامات الصليب التي يرسمها بعضهم في الهواء.

رفعت المذيعة السماعة من أذنها ونفخت الهواء المحبوس في صدرها طويلاً، فأخبرها المصور بأمر تلك السيدة العجوز التي رآها تعبر الحدود فوق المحفة، وقال مازحاً إن وجهها يشبه العذراء مريم لو كانت قد عاشت إلى السبعين!

انبعث من مكبر الصوت أمر حاسم: «على الأخوة الفلسطينيين العودة إلى القطاع خلال ٤٨ ساعة»!

اختفت الشمس وراء غيمة ثقيلة وأمطرت السماء لدقائق ثم عاد الجو صحواً ومشمساً كما كان. مازال المصور حاملاً

الكاميرا يجول وسط الحشود. يثبت العدسة على لقطات مختلفة: عجوز أنيق يضع غليوناً في زاوية فمه ويمسك فوق كتفه حملاً وليداً، ستة أتوبيسات سياحية تقف وراء المعبر، شاحنات ضخمة وصلت تباعاً وهي تحمل أطناناً من أجولة الحبوب والأغذية، مكتوب عليها من أسفل: «مع تحيات الحاج حامد الصفطاوي». ثم صعد المصور على قائم خرساني مرتفع بالقرب من بوابة المعبر، وراح يلتقط صورة بانورامية لكل ما يجري على الأرض، ويتابع من أعلى المذيعة وهي تجري لقاءات قصيرة وسريعة مع وجوه مختلفة. استوقفه ظهور حيوان أسود أمام العدسة. كان يخرج من أحد الجحور خلف النازحين من غزة. أكبر من أرنب بري وأصغر قليلاً من ذئب، أسود تماماً، وعلى فمه بثور ودمامل غريبة.

في الناحية المقابلة ظهرت المرأة العجوز. هذه المرة رأتها المذيعة بنفسها. كانت ملفوفة كلها في ثوب أبيض فضفاض، وتلف رأسها ووجهها الخمري بطرحة بيضاء. وكانت تقبض بيدها المعروقة على كيس شفاف به علب أدوية. وأبناؤها الثلاثة يحملونها على محفة ويجرون بسرعة. أحدهم ظلل وجهها بجريدة، ليجنبها حرارة الشمس. تداخلت الأصوات ووسط الحشد المندفع والارتباك أسرعت المذيعة بالمايك نحوها.

كانوا يندفعون بها في اتجاه رفح المصرية. والمايك على بعد متر من فم العجوز المستلقية على المحفة التي تتحرك سريعاً إلى الأمام. كانت امرأة واهنة، شبه مغمضة العينين. لا تتحرك تقريباً. أحد أبنائها تبرع بالنيابة عنها وقال دون أن تسأله المذيعة: «أمي الحاجة جليلة بعافية شوية».

اندفعوا بها بعيداً فلم يلتقط المايك سوى تلك الجملة. اجتازوا الحدود. فألقت المذيعة نظرة أخيرة عليهم وهم يصعدون بأمهم عربة إسعاف تابعة للصليب الأحمر.

في الخيمة المكيفة المخصصة للصحافيين تحدث المصور مع المذيعة وحاول أن يريها الوحش الغامض الذي صوره بهيئته الشيطانية لكنه لم يجد له أثراً في مقطع الفيديو عدا بقعة سوداء! كذلك عندما بحث عن مقطع المذيعة وهي تلاحق السيدة العجوز التي تشبه السيدة مريم العذراء، لم يجد سوى بقعة بيضاء وصوت نجلها: «أمي الحاجة جليلة بعافية شوية».

خفت الحركة من وإلى المعبر، مع دخول الليل، وأصبحت أكثر انتظاماً. مصابيح قليلة متباعدة تضيء تلك المساحات الشاسعة، فبدا الناس وما يحملون أشبه بأشباح وظلال. كان ثمة رياح صحراوية باردة، وعواصف رملية منخفضة. استكان الناس في خيام ومخابئ منتشرة هنا وهناك. تلاشت الأصوات ووقع الأقدام، لكن في التاسعة مساء سُمعت جلبة

وأصـوات عـالية خلف خيمة الصحـافيين. ارتـدت المذيعة بـاروكتـهـا الشقراء والعدستين اللتين بلون البحر، وحمل المصور الكاميرا على كتفه اليسرى وانضما إلى تجمهر النـاس وجنود الأمن المركزي أمام الثكنة العسكرية. كانوا يهللون والنساء يزغردن. قالوا إن العذراء تجلت أعلى الثكنة الخاصة بجنود الأمن المركزي! أم النور الممتلئة بالنعمة وقفت على حافة الثكنة بجسمها النوراني ولوحت لهم بغضن زيتون، وكان فوق رأسها حمامة بيضاء.

وقف المصور وكتفه في كتف المذيعة، ثم وجه عدسة الكاميرا إلى أعلى الثكنة، راصداً حركة الجسم النوراني الذي أضاء ليل الشتاء. همس قرب أذن المذيعة مازحاً: حسب معلوماتي إن العذراء تظهر فوق قباب الكنائس وليس فوق ثكنات عسكرية! ضغطت على كتفه بخشوع كي يصمت.

كانت ثمة حركة وامضة تظهر أمام العدسة، تأخذ مناظر نورانية متنوعة: بيضة سماوية هائلة، فتاة رأسها في السماء وحول الرأس هالة فضية أو طرحة زرقـاء. تتحرك بقدميها خفيفاً، سحاب وأبخرة متوهجة، مزيج من ألوان فسفورية وفضية وزرقاء فاتحة. تلوح للحضور بيدها اليمنى، تضع يدها على صدرها وتصلي. لكنها تلاشت في العتمة فور أن

أمطرت السماء بغزارة وانقطع التيار الكهربائي كلياً. رعد وبرق طول الليل. وفي الصباح، تم الإعلان عن استمرار فتح الحدود لعدة أيام أمام الحاجات الإنسانية، وجاء وفد من قساوسة دير سانت كاترين للتأكد من حقيقة التجلي. وأثناء وقوف المذيعة مع عضوين من وفد الكنيسة في حوار مباشر للقناة، رأت الشبان الثلاثة أنفسهم والمرأة العجوز نفسها وهي ملفوفة في ثوب أبيض فضفاض. كانوا يحملونها على محفة ويجرون بها بسرعة. كانت يدها متشبثة بكيس الأدوية. لكنها سقطت من فوق المحفة أثناء عبور الحدود وتدحرجت بين خراطيم المياه والقضبان الحديدية وبعر الدواب.(٥)

٥- هناك أربعة تقارير مهمة تتعلق بهذه الأحداث:

التقرير الأول: رفعه مدير المخابرات العامة آنذاك عمر سليمان إلى الرئيس مبارك (المخلوع لاحقاً) يوصي ببناء جدار إسمنتي بارتفاع ثلاثة أمتار بطول الحدود، وتعزيز قوات الشرطة بخمسمائة فرد، وبعد أن تلقى مبارك التقرير أعلن في معرض الكتاب أنه سمح بعبور الفلسطينيين (يقدر عددهم بأكثر من ٧٥٠ ألفاً) لشراء حاجاتهم من العريش ثم العودة، وشدد على عدم السماح بتكرار ذلك مستقبلاً.

التقرير الثاني: قدمه متان فلنئي نائب وزير الدفاع الإسرائيلي إلى رئيس الوزراء إيهود أولمرت (المتهم لاحقاً بالفساد والكسب غير المشروع) وتحدث فيه عن خطورة أي «تغيير استراتيجي» على الحدود، وإمكانية نقل الجندي المخطوف جلعاد شاليط إلى دولة عدائية خلال هذه الفوضى، وضرورة إنشاء سياج أمني على الحدود والسماح لمصر بزيادة قوات حرس الحدود وزيادة التعاون معها ضد العمليات الإرهابية وعمليات التسلل عبر الأنفاق.

التقرير الثالث: رفعه وفد قساوسة دير سانت كاترين وهم القمص بيجول متى والقمص ميخائيل عبد المسيح والقمص مرقس بينامين، إلى أسقف سيناء وجاء فيه:

«حضرة نيافة الأنبا مكاري أسقف سيناء المتنيح

أسعدنا اختيار غبطتكم لنا للذهاب إلى الثكنة العسكرية والتأكد من حقيقة تجلي أم مخلصنا، وليس غريباً أن تتجلى سيدتنا الممتلئة نعمة وتضيء بنورها الطريق للعابرين واللاجئين والجائعين والمحرومين والخائفين والمحزونين، وما أكثر ما يقترن تجلي شفيعتنا بمحن الإنسان، فكما تعلمون نيافتكم تجلت أم النور في بلدة فاطمة البرتغالية إبان الجمهورية الأولى بعد خلع الملك مانويل الثاني وانتشار الفقر والفوضى واشتداد الحرب العالمية. كما تجلت في الثاني من إبريل عام ١٩٦٨ فوق كنيستها في الزيتون واستقبلها آلاف المصريين بالترانيم والزغاريد ودق النواقيس وهتف الشباب:الصليب بينور ليه؟ الست العدرا واقفة عليه»! وذهب الرئيس عبد الناصر بنفسه لرؤيتها من شرفة منزل أحمد زيدان تاجر الفاكهة. فظهور أم النور كان خير تعزية لأهل مصر بعد النكسة، فهم من استقبلوا العائلة المقدسة وحموها من بطش هيرودس. ويبدو منطقياً أن تتجلى السيدة العذراء في ذكرى مرور أربعين سنة على تجليها السابق في الزيتون. ومثلما كان التجلي عقب النكسة بشارة خير بأن مصر ستسترد أرضها، فهو في هذا العام بشارة خير لأهل مصر وفلسطين. وإذا اعترض قائل بأنها في العادة تتجلى فوق الصلبان وقباب الكنائس وليس فوق ثكنة عسكرية، فيمكن الرد عليه بأن سلطانة السماء والأرض لم تجد مكاناً مرتفعاً وسط تلك الصحراء الشاسعة كي تشع منه على أحبابها سوى تلك الثكنة».

بالطبع لا تحمل هذه المقدمة الطويلة أية معلومة أكيدة عن حقيقة حدوث التجلي، حتى لو ذكر القساوسة أن الشفيعة التي تتجلى في بلدة صغيرة في البرتغال، أولى بها أن تتجلى في ثكنة لا تبعد سوى كيلومترات عن بلدتها الناصرة التي ولدت فيها!

لكن أهم ما جاء في التقرير هو آراء شهود الواقعة وعلى رأسهم أمل عبد المسيح وهي طفلة فلسطينية من مخيم جباليا قالت إن سيدتنا أومأت إليها برأسها، وثلاثة جنود أمن مركزي من سوهاج والمنيا والبحيرة هم خليل حنا ومصطفى علي العدوي ونادر أمين وعجوز سيناوي يدعى فارس أبو السعود تاجر عملة.(مرفق بالتقرير أقوال وبيانات الشهود بالتفصيل وكذلك نسخة من مقطع الفيديو الذي يظهر بقعة النور أعلى الثكنة)

التقرير الرابع: كتبه د.عبد المولى زكي أستاذ علوم الفضاء بطلب من جهة سيادية (وإن كنا لا نعرف رد فعل الجهة السيادية بعد تلقي التقرير) وتناول فيه ظاهرة ظهور القديسين لبعض الأشخاص، وأشار إلى أن التفكير الأسطوري المغلف بالإيمان هو ما يدفع إلى توهم ذلك، لكن التفسير العلمي أنها إحدى الظواهر الضوئية كالبرق والسراب، ومعروفة باسم «نيران سانت إلمو» بحسب دائرة المعارف البريطانية، وهي عبارة عن وهج، يلازم التفريغ الكهربائي البطيء، من الجو إلى الأرض. وهذا التفريغ يظهر، عادة، في صورة رأس من الضوء على نهايات الأجسام المدببة، مثل قمم الجبال والأبراج والقباب وصواري السفن. وتتشاهد أكثر خلال الشتاء، فالقسم البارز على سطح الأرض، إذا تعرّض لمجالات شديدة، من شحن الكهرباء الجوية، يُحدث تفريغاً وهجياً واضحاً. وموجات الهواء شديد البرودة، توفر الظرف الملائم لتولد موجات كهربائية، وكثيراً ما خدعت بعض الطيارين، فأبلغوا عن حرائق وهمية. أخيراً تجدر الإشارة إلى أن المصور حار في معرفة كنه الحيوان الأسود البشع ووصفه بدقة لأكثر من صديق إلى أن رجح أحدهم أن تلك الأوصاف لا تنطبق إلا على حيوان يسمى «شيطان تسمانيا» وهو من الحيوانات المفترسة شديدة الشراسة يمكنه تمزيق اللحم وكسر العظم، لكنه على أية حال مهدد بالانقراض.

الخناجر السبعة

(١)

اجتمع «ن» الطويل، «ز-١» القصير، «ز-٢» النحيفة و«ز-٣» السمينة. هتفوا للشاب الذي يقف مبتسماً على شاطئ النهر وفي يده كيس أسود ينز سائلاً غريباً.. لم يصنعوا له جناحين من ريش لكنهم صفقوا.. ثماني أياد على الشاطئ مثل فرقة موسيقية تلهب حماسه بإيقاع متواصل.. كلما ارتفع عن الأرض هللوا وصاحوا.. كاد يطير.. فوق النهر.. فوق اليابسة.

حماسهم، تشجيعهم، همسهم الرائع المُسكر، موسيقا أيديهم، الريح المواتية، وجريان النهر أسفل قدميه.. عناصر الوجود كلها ساحرة تضافرت في روحه وانصهرت مثل شعلة مقدسة يرفعها بيده ويحلق إلى أعلى.

جسده يخف كأنه عصفور دوري أو فراشة النوار. الوجود ذاب وتحول إلى طنين، خدر لذيذ، صور غائمة ونور وضاء.

بعد وقت. ليس ساعة وليس دقيقة. لكنه وقت. اختل توازنه، قوة غامضة عطلت قانون الجاذبية وقتاً ما ثم أعادته بعنف، فسقط الشاب الذي كان يرفرف مبتسماً على حافة النهر. سقط أرضاً وتدحرج هابطاً إلى سفح الجبل. انقلب على وجهه مرتين

أو ثلاث. ارتطمت يداه ورجلاه مثل أجنحة هشة تتكسر وتتلوى كلما انقلب.

ليس متأكداً مما رآه حين حلق وقتاً لأعلى، فضاء زجاجي مغمور بالماء، أكواريوم ضخم معلق بين السماء والأرض، تسبح في داخله أجزاء بشرية: عيون، أرجل، سيقان بيضاء شبه متحللة، أسماء صغيرة ملونة كأنها زهور، أوراق شجر، طحالب، عشب أخضر، صفصافة عملاقة، جثث فلاحات نصف عاريات كأنهن تماثيل إغريقية فوق صخور مغطاة بالريم والخضرة والطحالب الصغيرة، ساعات يد، حقائب نسائية، «تي شيرتات» بيضاء، براويز خشبية لصور غير موجودة، علب سجائر، علب سردين، ماكينات حلاقة، «كرافتات» ملونة، جهاز كمبيوتر يجرجر أسلاكه وراءه، لحية بيضاء عائمة بلا وجه، مسبحة، زجاجات بيرة ستيلا، شيشة، حافر حمار، زجاجات أدوية مغلقة كما هي، غليون، تذاكر مترو صفراء، خوذة جندي، تمثال أبيض للعذراء مريم، صورة للكعبة، لوحة لمنظر ريفي يتوسطه نهر، دمية عروس ترتدي فستاناً أحمر، مئات المفاتيح لشقق وسيارات، بطاقات معايدة، جوازات سفر، لافتات نحاسية عليها أسماء مجهولة، عدد من السنج ومطاوي قرن الغزال، عصي شرطة، سباطة موز، وحدة تكييف، شعار سيارات فورد، خريطة فلسطين القديمة، جرس ضخم، راديو

صغير، طبلة مثقوبة، «ماج» عليه رسمة توم وجيري، جوال من الخيش ممتلئ بشيء ما، وأرانب بيضاء بعيون قرمزية في الأسفل ترعى عشب الأكواريوم.

هناك لم ير أحداً ممن صفقوا له.. لا يدري هل كانت تلك الكائنات والأشياء تسبح حقاً أم هي الحركة الذاتية للماء تغير أمكنة الأشياء؟

مازال ملقى عند سفح الجبل، يد واحدة من الأيادي الثمان كانت كافية كي يستند عليها وينهض لكنه لم يجدها.

لمح بطرف عينه ملاكاً مكللاً بتاج من الياسمين الأبيض يهبط خفيفاً من السماء. ثم دنا منه فتدلى وغرس في بطن قدمه المقلوبة لأعلى خنجراً ناصع البياض كي يثبت جسده إلى الأرض.

(٢)

مرت عليه عشر شموس، عشرون، ستون شمساً وهو هكذا: ممدد أرضاً، مقيد إلى البقعة ذاتها: بقعة السقوط، والهبوط في المكان ذاته الذي حاول الطيران منه.

كانت قدمه مثقوبة بخنجر ناصع، وكان مقيداً إلى ثقل الأرض، لكن عينيه تدوران وتريان كل ما عليها من جبال وتلال وأشجار ومدن ومعابد ووحوش وبشر.

مر عليه ألف يوم وألف ليلة.. يتنفس ببطء لاهث. لم يعد يدرك كيف يحصي السنين ولا كيف ينزع الخنجر من قدمه اليسرى. لكنه مازال يرى حتى وهو مغمض العينين.

كان يراهم من بعيد. «ن»، «ن-١»، «ن-٢» و«ن-٣»، الطويل والقصير، النحيفة والسمينة، يمرون عليه مصلوباً على وجه الأرض، كأنهم لا يعرفونه! يكتشفونه للوهلة الأولى. وعندما باتوا قاب قوسين أو أدنى، ولوا ظهورهم قبل أن تلتقي عيناه في أعينهم.

بل إن «ن» الطويل مد يده وحجب ضوء الشمس ثم أطفأ شمعة أوقدتها راهبة عابرة في آخر الممر المتجه إلى الوادي الأخضر.

من بعدهم مر ملاك نوراني الملامح، استل من خصره خنجراً يمنياً وفقأ عينيه، كي يعتاد العتمة ويرتاح من الرؤى والأمل.

(٣)

مرت عليه عشر شموس، عشرون، ستون شمساً وهو هكذا، ممدد في عتمته الأبدية مثل إله لا يجد أحداً يتحدث إليه.. لاشيء هناك سوى العتمة والصمت وحشرجته الواهنة ورائحة

النعناع الآتية من الوادي الأخضر.

جاءت الداية والحلاق والدلال، هو لا يعرف أنهم الدلال والداية والحلاق. لا يرى، فكيف يعرف؟! ليس للدم ولا الشعر ولا النقود روائح تبقى في أيديهم وتدل عليهم.

اقترب الحلاق من أذنه:

ـ ألست فلاناً؟

قال: لا

تفحصت الداية ملامح وجهه:

ـ أليست أمك فلانة؟

قال: لا

نغزه الدلال بعصا قصيرة في يده:

ـ أليست هذه بلدك التي ولدت فيها؟

قال: لا

سجلوا في الأوراق اسما ليس اسمه، نسبوه إلى أم ليست أمه، إلى بلد ليست بلده.. ثم وقعوا في ذيل الصحيفة بأن فلاناً ابن فلانة أمة الله من بلد كذا.. عاش خائناً يكره بلده، متنكراً لأصله وأمه، فجزاؤه أن يموت وحيداً في العراء. قرب النخلة

الوحيدة تحت الغمام.

لكن الملاك الهابط من السماء اكتفى بقطع لسانه الذي لا يقول سوى «لا»

(٤)

وجاء من خلف التلال والظلال الملكان منكر ونكير. صمتا طويلاً في حضرة من فقد لغة الكلام. استمعا وقتاً إلى الكلام الساكن في حشرجته. أخيراً تودد إليه منكر قائلاً:

«يا بني، يا عبد الله يا ابن أمة الله، ألست فلاناً ابن فلانة من بلد كذا؟»

حشرج خفيفاً:

«لا»

طوى منكر الصحيفة السرية التي تُحصى فيها السنون والأفعال والأقوال، وشهادات بشر يعرفهم وبشر لا يعرفهم.

وقف نكير في مكانه وصاح غاضباً:

«ما مذهبك؟ من نبيك؟»

استمرت حشرجته واهنة:

«لا مذهب لي ولا نبي».

اقترب منه أكثر وبحنان الأبوة تلطف في السؤال:

«أو ليس لك يا بني مذهب تقاتل من أجله؟ نبي تدافع عنه؟
ضم يديه على الطريقة اليابانية، ثم باعدهما وهزهما عنيفاً. فهما أنه لا يمنح ولاءه المطلق لأحد أبداً. باعد بين يديه لأقصى ما استطاع، يؤشر لهما على تلك المسافة العميقة التي يبقيها بينه وبين العالم.. مسافة ضرورية لاحتمال كل أشكال المكسب والخسارة.

احتار منكر ونكير في أمره وإن لم يخف التعاطف في أعينهما.. تبادلا نظرة طويلة، ثم سجلا في دفتر الأبدية:
«كيف يمكن أن يدخل الجنة رجل لم يُعاد أي فريق ولا دافع بروحه عن أي مذهب؟! هل يمكن أن يدخل الجنة رجل لم يفطم على الكراهية؟!

ليس على حافة النهر من يجيب، والملاك الذي خرج هرقلياً عارياً من الماء، كانت لديه مهمة محددة: أن يغرس خنجره المسموم خلسة في قلبه، مباشرة وبضربة واحدة.

(٥)

كان مثبوتاً في الأرض وفي السماء، باسم ليس اسمه، منسوباً إلى وطن ليس وطنه، إلى أم ليست أمه، أماكن ليست أماكنه. كما أجبروه أن ينتمي إلى مذهب ليس مذهبه، فلا

يمكن أن يقاس الخطأ والصواب إلا عبر الولاء للمذهب، لا يمكن أن يطبق عليه مبدأ الثواب والعقاب إلا إذا كان يدين بالولاء لهذا المعتقد أو ذاك. من غير المعقول أن يُحاسب شخص بلا هوية على هوية لا يعرف عنها شيئاً!

لا مفر من الاستعانة بالكورس مرة أخرى: الداية والحلاق والدلال ومنكر ونكير. جاءوا من نوافذ السماء وشقوق الأرض، ودشنوا حفل التلقين والتعميد:

«إذا سُئلت عن اسمك فقل: فلان ابن فلانة.. إذا سُئلت عن بلدك فقل كذا.. إذا سُئلت عن مذهبك قل كذا. استغرق حفل التلقين عشر شموس، عشرين، ستين شمساً حتى أصبح العقاب مبرراً على أي خطأ أو نسيان لما تم تلقينه إياه.

أثناء التلقين تبادلوا جميعاً جلب الدلاء من النهر، غمروه بالماء مرات ومرات، حتى يفيق من إغماءته المربكة وينتبه بحواسه الخمس لدفتر التعاليم. كانوا بارعين في غسل أعضائه المتيبسة وتطهيره من الرجس والأوساخ ونواياه السوداء.

اندس بينهم ملاك في هيئة حارس مقبرة، سجل بنفسه كل النقوش الأساسية على نصل خنجر معقوف، ثم تعاونوا جميعاً في إيلاج الخنجر من فمه وإخراجه من فتحة الشرج. فتلك هي الطريقة المثلى كي تبقى التعاليم والنقوش في جوفه إلى الأبد.

ما بين الثقب العلوي والثقب السفلي، تاريخ حرير من التعاليم والنقوش!

(٦)

الأكواريوم المهيب انفجر أشلاء فوق ظهره المقلوب، ومن فداحة صرخته لم تستطع أذناه أن تسمعها!

العابرون أطفأوا الشمعة والشمس، ورحلوا..

العابرون صفقوا له وهو بلا جناحين ثم تركوه وجسده المتعب يئن في العراء.. تركوه في حفل التلقين الشرس يجتر بيانات كاذبة عن نفسه.. يزعم أن «س» والده وما هو بوالده. يزعم أن الله في السماء ابتسم له دون بقية ما خلق.. يتحدث عن مقاه لم يزرها، سفن لم يركبها، أعمال لم يعملها، أفكار لم يفكر فيها.

تائه في كلامه السري بين ما لقنوه وما رآه وما هيئ له أنه رآه. يجتر تعاليم غامضة فكيف يدرك بها ذاته؟!

في اللحظة التي زينه فيها ملاك الرحمة للصعود الحقيقي نحو البهاء، سمح له للمرة الأولى أن يبصر ذاته في المرآة. كانت معجزة أن يرتد بصيراً سميعاً متكلماً. حقاً ما فائدة الملائكة إن لم يصنعوا المعجزات؟!

اكتشف في المرآة أنه لم يعد هو:

«هذا ليس أنا» هكذا صرخ.. لكن ذهبت الصرخة مع الريح ولم تعد.

مرت عليه عشر شموس، عشرون، ستون شمساً، ألف شمس وهو يصرخ: لا أراني فكيف أعرفني؟ لا أسمعني كيف أفهمني؟ لا أتكلم كيف أقرأني؟ من أنا؟! من أنا؟! من أنا؟! وامرأة من نافذة بعيدة تنادي بجنون: «تعال يا بُني.. تعال.. تعال».

صرخات سرمدية متضادة، تجوب الآفاق ثم ترتد إلى أذنيه دون أن تحمل إجابة. كلما رن السؤال «من أنا؟» في الفضاء ضحك أحدهم من سذاجته وخلع قناعه الملون: الحلاق هو الدلال، الداية هي نكير، منكر هو «ن»، « ن» هو «ن-١».

بالبساطة نفسها جاء ملاك عجوز أسمر في ملابس بيضاء فضفاضة. مد الملاك الحكيم نصل خنجره القصير، وغرسه مثل جراح ماهر في جلد وجهه، بعدما وضع في مواجهته مرآة الحقيقة. استمرت العملية وقتاً. ليس ساعة وليس دقيقة. لكنه وقت. الملاك المحنك ينزع عن وجه الشاب الذي وقف مبتسماً على حافة النهر قناعاً تلو قناع تلو قناع تلو قناع ثم يسلم له وجوهه الذابلة كي يحتفظ بها معلقة على الجدار مثل سروج الخيل. تلك الوجوه التي استهلكها مراراً في حفلات التلقين،

في خياله، في حيوات يشعر بطريقة ما أنه عاش فيها. لكنه ليس متأكداً أين ومتى وكيف عاش؟!

آخر ما تصوره أن يكون هو نفسه الداية والحلاق والدلال، منكر ونكير، «ن» و«ز-١»....... هو نفسه «س... هو نفسه «الغريب الصاعد إلى مكان غريب».. هو نفسه الخنجر ناصع البياض الذي قطع لسانه وفقأ عينه وطعن قلبه.

(٧)

لولا إدراك الوجوه التي كانها لما سُمح له أخيراً بالصعود إلى السماء السابعة. هناك رأى سبعة ملائكة في ثياب ملائكية بيضاء، في خصورهم سبعة خناجر متدلية. كانوا يبتسمون له مرحبين.

رد الابتسامة بابتسامة، ثم قال في سره كمن أصابته لوثة: مرحى بأعوان الشيطان. كان ممسوساً مضللاً، لكنه كان مكشوفاً لهم على حقيقته في مرآة الحقيقة. هو في ظنهم ليس أكثر من برص علق في حبائل الشيطان.. هو في أعماقه كان روحاً بريئة لا يعرف كيف تتجسد. دائماً وأبداً يحوم حول الحكاية الأولى وهي ممحوة تماماً من فناء وعيه. هل كان الأكواريوم الرهيب أول الحكاية أم موسيقا الريح؟

من نافذة السماء السابعة رأى الأرض كما لم يرها من قبل.

كانت امرأة في حجم حوت أبيض تستحم في ماء مظلم عميق. سأله أحد الملائكة:

ـ أليست هذه أمك؟

هز رأسه مطيعاً أو مجيباً.

كان الماء المظلم العميق لا شاطئ له، لكنها لما أخرجت وركها العظيمة ناصعة البياض من الماء، صارت شاطئاً ثم هبطت فوقه إوزة بيضاء باضت أعلى الورك ثلاث بيضات: ذهبية وفضية ونحاسية. لكنه لا يتذكر أية بيضة فقست قبل الأخرى. ثم حلقت الإوزة عائدة إلى السماء. سأله ملاك آخر:

ـ أليس ذكر الإوز هذا، هو أبوك؟!

هز رأسه مجيباً. لا يدري متى ولا كيف أخفت أمه وركها مرة أخرى في مائها العميق، ولا متى ظهر الأكواريوم مرة أخرى يتحرك في مدار معلوم مثل مجرة مصغرة عالقة بين السماء والأرض!

تورط في لعبة لم ولن يفهمها أبداً. هل انفجر الأكواريوم حقاً فوق سلسلة ظهره؟ أيهما كان موجوداً قبل الآخر؟ مرت عليه عشر شموس، عشرون، ستون، ألف شمس، وهو يجري من نافذة سماوية إلى نافذة سماوية أخرى، وفي كل مرة يفشل في العثور على إجابة، يعجز عن استعادة حكاية لا يعرف إن

كان قد عاشها من قبل أم حكاها له ملاك مجهول!

ألقوه من نافذة السماء الثالثة، وتركوه وحيداً.. بلا نقوش ولا تعاليم ولا تلقين.. بلا طمع ولا خوف.. طفل مكتفٍ مطمئن إلى ذاته، لا يعول على البقاء ولا العدم، لا الاسم ولا المسمى، لا اليأس ولا الرجاء.. يتمنى فقط أن ينام وادعاً فوق تلال القطن الأبيض المُندى، بلا ألم ولا حشرجة، لكنه يخشى أن يكتشفوا ما يدور في أعماقه فيحرموه متعة النوم الآمن في العراء.

كأنه يرفس بعنف مشيمة وجوده المحتمل كلما اقتربت منه راهبة في بياض القشدة، كانت واقفة على الممر المتجه إلى الوادي الأخضر. هي راهبة لكنها بلا دين، وبلا زي.. عارية تماماً مثل منحوتة نورانية.. ذات عين مفتوحة مثل نهر، وعين مغلقة مثل يابسة. أشعلت شمعة بالقرب من وجهه الصامت المعذب، فكاد أن يعي للمرة الأولى ذاته. ذات هشة تدور وتدور في ماء مظلم عميق. في عين الراهبة تلمع كل تلك الأشياء والكائنات والبقايا التي رآها أو توهم أنه رآها سابحة في الأكواريوم العظيم.

احتضنته الراهبة بجلال عريها وقالت:

«لا بأس يا بني.. أعلمُ تماماً.. أعلم أنك تعذبت طويلاً لكن رحلتك المقدسة لم تبدأ بعد»!

شريف صالح - سيرة ذاتية

- كاتب وصحفي مصري
- ماجستير في النقد الأدبي

صدر له

- إصبع يمشي وحده قصص دار المحروسة ٢٠٠٧
- مثلث العشق قصص دار العين ٢٠٠٩
- شخص صالح للقتل دار الياسمين ٢٠١١
- رقصة الديك مسرحية دائرة الثقافة والإعلام الشارقة ٢٠١١
- نجيب محفوظ وتحولات الحكاية الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة كتابات نقدية ٢٠١١

المحتويات

الغواية الأولى	٧
ألعاب الراعي	٢٣
العجوز الذي يراقبنا	٣٢
عصر السنجة	٤١
الطواف وسارق النحاس	٦١
تجشؤ	٧٤
النحلة الخشبية	٨٣
وراء البياض	٩٨
الخروج إلى الشمس	١٠٧
وفاة غامضة لعدو صامت	١٢٤
زائر أم الرشراش	١٣٢
السيدة المختفية	١٤١
الخناجر السبعة	١٥١
شريف صالح - سيرة ذاتية	١٦٥

بيضة على الشاطئ - قصص - شريف صالح - كتاب دبي الثقافية 92

شريف صالح

يسعد دار «الصدى»، ومجلة «دبي الثقافية»، ويسعدني شخصياً، أن نقدم للقارئ العربي المتابع للمجلة وأنشطتها، هذا الإصدار الخاص بالفائزين في الدورة السابعة من مسابقة دبي الثقافية للإبداع التي أكملت مدةً زمنيةً كافيةً بين أيدي القراء الكرام؛ ليتعرفوا إليها ويطلبوها، وتتزايد إسهاماتهم في دعمها عاماً بعد آخر.

سيف المري

92
يصدر أول كل شهر ويوزع مجاناً مع مجلة دبي الثقافية

مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار
الصدى
للصحافة والنشر والتوزيع